سعـــــداللــــه ونـوس

مسرحية ملحمة السراب



سعد الله ونّوس

ملحمة السراب

من الأعمال الكاملة

المجلد الثاني

الطبعة الأولي

١٩٩٦

الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق

ملحمة السراب

الفصل الأول

عودة عنبود الغاوي الثالثة من المهجر(*)

(*) إن عناوين الفصول هي جزء من نسيج العمل، ولذا فإني أفترض إبرازها في العرض، سواء عبر أداء الممثّل، أو عبر لافتة مكتوبة تقدّم الفصل، أو تكون جزءاً من ديكور مشاهده المتوالية.

فاتحة

(ضوء باهر البياض، يمتصّ حدود الموجودات وظلالها. كما يحوّل الوجوه إلى بقع، تتماوج بين السواد والبريق. من الصعب تمييز الملامح، وكذلك تفاصيل المكان. ولعلّ الشيء الوحيد الذي يستوقف الانتباه، هو مزهرية سوداء فيها وردة ضخمة صفراء اللون. ولكن الذبول يجعل الصفرة تنحلّ إلى ألوان بنيّة، تتدرّج حتى الاهتراء. تتساقط أوراق الزهرة بإيقاع غريب، وصوت يشبه رنين جرس زجاجيّ صغير. عبّود الغاوي، والخادم).

الخادم : بدأ الركود يقرض أموالنا، مثل فئران جائعة، لم أعد أجد تسلية لا في المكتب ولافي البورصة.

عبّود : إني عليل.. أشعر أني شخت فجأة.

الخادم : متى داهمك هذا الشعور؟

عبّود : لا أعرف بالضبط. منذ فترة، وأنا أحسّ أن قواي تتسرّب من جسدي. في مفاصلي وهن وضعف.

الخادم : هذه مغبّة الإسراف. لم يكن الإنسان، في أيّ عصر من العصور، سفيهاً في تبديد قواه، كما هو اليوم في هذه المنطقة من العالم.

عبّود : لم أطلب تفسيراً أو موعظة..

الخادم : ماذا تطلب إذن؟

عبود : إن بيننا اتفاقاً وميثاقاً. أليس بيننا اتفاق وميثاق؟

الخادم : وهل قصّرت يوماً في تنفيذ التزاماتي؟

عبود : ماذا تنتظر إذن! ألا ينصّ الميثاق على أن تجدّد قواي، كلّما وَهِنت أو خارت!

الخادم : ومتى مانعت؟

عبود : لماذا لا تبدأ إذن؟ افتح صندوقك، وأخرج ما لديك من خلاصات السّحرة، والأدوية المركّزة.

الخادم : لا تكن عجولاً. في هذا المناخ الراكد، والموبوء، لن تفيد الأدوية المقوّية، ولن نستطيع إجراء العمليّة اللازمة.

عبود : أتحاول التملّص؟

الخادم : (بحدة) ماذا دهاك؟ هل فقدت ثقتك بي؟ إن عروقك المتآكلة تحتاج إلى دماء فتيّة طازجة، لا يمكن أن نجدها هنا.

عبود : وماذا تقترح؟

الخادم : أن نسافر إلى دولة من دول الأرياف.

عبود : أتريد أن نسافر إلى بلدي؟

الخادم : لا.. أفضّل أن نسافر إلى بلد آخر.

عبود : ولماذا تفضّل بلداً آخر؟

الخادم : وهل تشعر بالحنين!

عبود : لست عاطفياً إلى هذا الحدّ. ولكن أعتقد أن في البلد تسهيلات يصعب أن نجدها في بلد لانعرفه.

الخادم : لنكن صريحين.. حالتك تقتضي عمليّة شاقّة، لا يستطيع أن يُجريها إلا طبٌ لا يعرف الرحمة، ولا يخاف الشفقة.

عبود : وما الذي تخشاه؟

الخادم : لا أدري.. يغدو المرء هشّاً مع الناس الذين يعرفهم. أخشى أن تضعف، أو تشفق.

عبود : كأنك تجهلني! ألا تعرف ماذا يوجد مكان القلب في

صدري!

الخادم : هو إجراء احتياطيّ لا أكثر.

عبود : **(وهو يدقّ على صدره)** هنا.. يوجد صخر لا قلب. لا نحتاج إلي احتياطات. ولن نسافر إلا إلى البلد الذي نعرفه.

الخادم : كلّما عاشرتك، ازددت تعلّقاً بك. أتعرف ما الذي جعلني ألبّي نداءك في تلك الليلة الثلجيّة؟

عبود : لم تخبرني قبل الآن.

الخادم : **(يقترب من المزهرية. يهزّها، فتساقط عدّة أوراق، ويتماوج رنين زجاجيّ غريب)**، في تلك الليلة الجليديّة، بدوت لي قاسياً كالماس. صلباً كالفولاذ. لم يكن في رأسك أوهام، ولم يكن في قلبك شفقة أو حنان. كنت تنادي.. وكنت تشعّ. ولم يكن بوسعي أن أتجاهل هذا النداء المشعّ. لاسيما وأني كنت أجتاز وقتاً من الضجر والخمول.

عبود : أنت! تضجر، ويصيبك الخمول؟!

الخادم : نعم.. إني أضجر، وأقرف أيضاً! خدمت سيّدين متواليين، كان كل منهما بلصة حقيقيّة بالنسبة لي. الأوّل صاحب مصنع، وكانت الصناعة معجزة العصر. والثاني رجل أعمال مفلس، تعاقد معي على القتل مقابل إنقاذه. وحين انتعشت اعماله، وكثرت أمواله، غرق في الندم، وطاردته الوساوس حتى نقض الميثاق، وراح يجوب العالم بحثاً عن الغفران. أمّا الأول.. أف دعنا منه. باختصار.. كان وقتي معهما أغبر، وكان بين الخير والشرّ تداخل وميوعة، أثارا قرفي ونفوري. كنت مثل حسناء.. كلّما ازدهر جمالها، تدنّى مستوى الرجال الذين تغويهم وتعاشرهم. من فاوست.. ذلك العالم الجريء، الذي يريد كلية المعرفة وكلية المتعة معاً، إلى رجل أعمال أخرق تركبه الوساوس، ويسوح في الدنيا بحثاً عن

الغفران.

عبود : هل يعني هذا أنك مرتاح معي؟

الخادم : حين لفحني وهج عينيك، والصلابة التي جرحت بها يدك، كي تمهر الميثاق بالدم، شعرت أني أجوهر. ما كنت تحب دخان المصانع، أو الانغماس المباشر في التجارة. كنت تتوق إلى المطلق. إلى ثراء نقيّ، يتراكم كالبلورات مختزلاً المصانع والأراضي والممتلكات.

عبود : لا داعي للإفاضة.. إن ضعفي يحثّني على السفر، فدعنا نبدأ الترتيبات فوراً.

الخادم : كم أحبّ هذه اللهجة التي تحسم وتقرّر!

عبود : أشبعتني غزلاً، ما أحتاجه هو أن تبدّل هذا الوهن قوّة. فاتبعني.. كي نضع خطّة وترتيبات السفر.

الخادم : إني أتبعك...

(يختفيان. وفي الضوء المشع تتساقط ورقات من الزهرة الذابلة، مخلّفة رنيناً متلاحقاً. تختفي الإضاءة.. ويتواصل الرنين فترة).

مشهد ١

(امرتأن في أحد زواريب القرية. مريم الملقّبة بالزرقاء(*)، وفاطمة الموعي)

فاطمة : هل علمت يا خالة؟

الزرقاء : القرية كلها علمت.

فاطمة : رفضت أخته أن تحدّد موعد وصوله. قالت وكأنّها تمخّط الكلام.. قريباً سيكون بيننا.

الزرقاء : هذه الفاجرة.. تدلّت ساقاها في القبر، ومازالت تعمل قوّادة لأخيها.

فاطمة : ألا تبصرين يا خالة من اختارت هذه المرّة.. أو البيت الذي تحوم حوله؟

الزرقاء : منذ زمن بعيد فقدت قدرتي على الإبصار يا ابنتي..

فاطمة : كانت أمي تروي عنك حكايات عجيبة. قالت لي.. كنتِ تخبرين عمّا سيأتي، وكأنّك ترينه أمامك.

الزرقاء : نعم. كان ذلك يحدث أحياناً، ثم ضعفت هذه القدرة، واختفت نهائياً، بعد أن أنجبت ولدي الثاني مروان. بعد ولادته أحسست أن غشاوة لفّت بصيرتي، وألقت عليها حجاباً. كان آخر ما أبصرت هو داء الهواء الأصفر. أبصرته

---

* لأنها تبصر بعيداً في الزمن، وتتنبأ، لقبّت بالزرقاء تشبيهاً لها بزرقاء اليمامة، التي ضرب المثل بها في حدة البصر، وصدق الخبر.

قبل شهرين من حلوله، وأبصرت أنه سيزهق أرواحاً كثيرة.

فاطمة : وإذن.. لا تستطيعين الآن أن تبصري، أين ترمي تلك الحيزبون شباكها؟

الزرقاء : لا.. لا أستطيع.

فاطمة : أما أنا فلديّ شكوك، يحدّثني قلبي أنها وضعت عينها على رباب بنة ياسين.

الزرقاء : رباب.. ابنة ياسين! لا.. هذا حرام.

فاطمة : وهل يهمّها الحرام؟ منذ فترة، كانت تجرجر قدميها متوكّئة على عصاها. وحين مرّت رباب، وقفت وتفرّست فيها بنظرة كالمخرز. وقانا الله من تلك العينين. كيف أصف لك! بنظرة ثاقبة جسّت البنيّة وعرّتها، فوخزني قلبي، وأحسست أنها سترمي الشبكة هذه المرّة على رباب..

الزرقاء : هذه امرأة لا تخاف الله. جنَت على صبيّتين، كل واحدة كالفلّة، وها هي تريد أن تجني على أجمل وألطف بنات الضيعة. أيمكن أن يوافق أهلها؟

فاطمة : ومن رفض قبلهم؟ هل رفض بيت الطاهر حين قطف زهيّة! أو هل رفض بيت المرشد حين طلب كريمة! لا.. إن للمال قوّة لايستطيع أحد أن يقاومها.

الزرقاء : يلعن أبو المصاري. هل تعمي الناس؟ ألا يرون كيف يتزوّج عبّود الغاوي! يتسلّى مع الواحدة بضعة أشهر، ثم يعيدها إلى أهلها مطلّقة وبائرة.

فاطمة : معك حق.. صارت الحكاية مكشوفة ومفضوحة، لكن يبدو فعلاً أن بريق المال يعمي الأبصار. ولا تنسي أنه ليس بالرجل الهيّن. إنه خبير وماكر. قالت لي زهيّة.. إنها عرفت حقاً كيف تكون الحياة في الجنّة. بعد أن يغدق على الأهل، ويملأ عيونهم، يغدق على البنت، ويحملها إلى أجواء غريبة تسحر

العقول، وتبلبل الكيان. لا.. خذيها مني، إذا طلبها، سيُجاب، وسيقطف هذه المرّة الصبيّة الطفلة رباب.

الزرقاء : والله لو كان في رجالنا نخوة، لمنعوه الدخول إلى هذه الضيعة.

فاطمة : إذا لم يمنعوه، يمكنهم على الأقل، أن يرفضوا تقديم بناتهم له. ولكن يبدو يا خالة أن المال قتل نفوس الرجال.

الزرقاء : يسلم فمك.. تلك هي الحقيقة، هل تذهبي إلى الدكان؟

فاطمة : نعم..

الزرقاء : إذن سأرافقك.

(تخرجان.. وتتلاشى الإضاءة)

مشهد ٢

(بيت ياسين، الشاعر والمغنّي.. غرفة مبنيّة من الحجر الخفّان، وأرضها من الإسمنت يبدو أنها بُنيت بصورة مرتجلة، إلى جوار البيت الريفيّ المبنيّ من حجر الدفش والطين، يجلس ياسين على كرسي واطئ من القشّ، وفي حضنه ربابة يعزف عليها. زوجته فضّة، وهي امرأة في أوائل الأربعينات يتّصف وجهها بالملاحة والجاذبية، وقامتها رشيقة مع امتلاء لطيف. تجلس على الأرض منهمكة في حفر الكوسا والباذنجان. وابنتهما رباب وهي صبيّة جميلة لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها، تمشّط شعرها، وتتهيأ للخروج).

فضّة : **(بعد فترة من المشهد، وبعد أن يتميّز اللحن الذي يعزفه ياسين)** اترك هذه البطيخة من يدك. بدأ رأسي يؤلمني. في الليل والنهار.. ألا تشبع؟

رباب : إن عزف أبي جميل.

فضّة : وماذا جاءنا من عزف أبيك إلا العيب والتعتير.

ياسين : العيب على من يعمل العيب يا فضّة.

فضّة : **(كالملدوغة)** ماذا تعني؟

ياسين : لا أعني شيئاً. إن قوّالاً كانت تطرب له قرى هذه الديرة، وتأتيه دعوات، لو لبّاها لما نام ليلة في بيته، لا يمكن أن يعاب أو يوصف بالتعتير!

فضّة : لا.. لايجوز أن نتحدّث عن التعتير، ألا ترون العز الذي نحن فيه! لفّها يا ياسين، ولا تدعني أرمي هذه الحصوة من فمي.

ياسين : لا تتحرّجي، وارميها.

فضّة : ماذا أقول.. لم تحمل مسؤولية، ولم تحسن في حياتك إلا كرع العرق والتهريج للناس.

ياسين : **(منتفضاً)** أنا شاعر لا مهرّج. إني أرتجل المواويل والقصائد كما يتدفّق الماء من نبع الصخرة. يا ضيعة هذا العمر! شِخْتُ ولم تعرفي أبداً قيمتي ومقداري. لكن أولادي سيفهمون ذات يوم، وسيقدّرون. ألا تقدّرين يا رباب؟

رباب : **(وهي تقبّل جبينه)** نعم يا أبي، إني أحبّ مواويلك، وأحبّ عزفك. ولكن أتمنّى ألا يحدث بينك وبين أمي زعل.

فضّة : ولِمَ الزعل! هو كلام جرّنا بعضه إلى بعض.

ياسين : أين تذهبين؟

رباب : سأزور ابنة خالي. أريد أن أستعير كتاباً أقرأه. **(وهي تخرج)** أتريدين شيئاً من بيت خالي؟

فضّة : سلّمي على خالك والجميع. **(تخرج رباب من البيت)** لم يكن قصدي يا ياسين أن ألومك. كل ما أردته، هو أن تزيح الربابة، لأن هناك موضوعاً مهمّاً أحبّ أن أفاتحك به.

ياسين : وما هو هذا الموضوع المهمّ؟

فضّة : يا سيدي، القصّة وما فيها أن زنّوب الغاوي صار لها شهر أو أكثر، وهي تتحشّر بي، وتحاصرني بالتلميحات.

ياسين : وماذا تريد هذه الشمطاء؟

فضّة : لا.. لا تسبّها. المرأة قلبها علينا، وتريد أن يكون الحظّ هذه المرّة من نصيبنا.

ياسين : أيّ حظ! وأيّ نصيب! عمّ تتكلمين؟

فضّة : ألم ترَ الموكب الذي دخل به عبّود الغاوي إلى القرية؟ ثلاث

سيارات عجيبة بطولها، وبريقها، ونعومة هديرها. في الأولى يتربّع الخادم الأحدب، الذي صحبه في كل زياراته، وفي الثانية كان يجلس الغاوي كأنه أمير أو ملك. وفي الثالثة تتكدّس الأمتعة والحقائب. ألم ترَ كيف أذهل الموكب عقول الناس، وخطف أبصارهم؟.

ياسين : الرجل مقتدر ولديه أموال لا تأكلها النيران. إيه.. زمن لئيم لا يُغدق خيره إلا على اللئام.

فضّة : (برقّة) انقضى العمر يا ياسين، ونحن نشتم الزمن! ها هو الحظّ يطرق بابنا. وإذا عرفنا كيف نسايره، فسيكون لنا نصيب من زماننا.

ياسين : دعيني من هذه الألغاز، وأفصحي عمّا لديك.

فضّة : قالت لي زنّوب.. هذه المرّة لن أزوّج أخي وضوء عيني إلاّ ابنتكم رباب.

ياسين : ماذا تقولين؟ هل جننت؟

فضّة : اهدأ.. اهدأ، النعمة تأتي حتى باب البيت، فلا تكشّر في وجهها.

ياسين : أيّة نعمة هذه! رجل بلغ الستّين، وابنتنا في الثامنة عشرة من عمرها! ثم ألا يتعلّم الناس من زيجاته السابقة! لا.. ينبغي أن يكون المرء مجنوناً كي يوافق على أمرٍ كهذا.

فضّة : مع مركزه وغناه، الكِبَر لا يعيبه، وأعتقد أنه سيطمرها بالمال والدلال كي يبقيها راضية. انظر إليّ يا ياسين.. نحن لانبيع البنت، بل نزوّجها. وفي هذه الأيام الصعبة، سيكون حظّاً كبيراً أن تتزوّج غنيّاً ينالنا جميعاً شيء من خيره وماله.

ياسين : نعم.. المال. هذا ما يقلب رأسك، ويسلب الرشد منك.

فضّة : ولمَ لا؟ ما الذي تستطيع أن تفعله بلا مال؟! ألا نحتاج إلى المال كي يَصلُحَ هذا البيت للسكن! ألا نحتاج إلى المال كي

نرتّب مستقبل ولدينا! أنت لا تفكّر بهذا كلّه. تتلاعب بربابتك، وتترك عبء البيت والأسرة على ظهري.

ياسين : (**بهدوء محتقن**) نعم.. إننا فقراء، ونحتاج إلى مال كثير، كي نصلح حالنا، ونؤمّن أولادنا. ولكن لن أكون نخّاساً، ولن أبيع ابنتي كي أحصل على هذا المال.

فضّة : ماشاء الله! اسمع.. قلت في نفسي، عيب يا امرأة، مهما كان، هو الرجل، وينبغي أن يشارك في الأمر. أما أن تتّخذ حضرتك قرارات، وتقول.. أسمح ولا أسمح، فهذه ثخينة يا سيّد الربابة.

ياسين : اليوم.. نعم اليوم بالذات.. سيقول ياسين الموّال الذي أخفاه في صدره تعفّفاً وكرماً. سيغنّي، وهو يشهق بدموعه، عن عفاف الزوجة التي لطّخت البراري بالفسق والخيانة. لا.. إني أعفّ من أن أجرد حسابك يا فضّة. من أجل الأولاد قبلت الهوان. ومن أجل الأولاد أقول لك الآن.. اقفلي على هذه السيرة، وإلا مَسَحتُ بك الأرض.

فضّة : ما هذه اللهجة؟ أتهدّدني؟ أنسيت أن لديّ أنا أيضاً موّالي، وأني إذا غنّيته لن يبقى لك قعود في هذه القرية؟ أنسيت ليلتنا الأولى، حين مزّقت العروس بكارتها بهذا الإبهام، وسهّلت عليك دخولها؟ حاولت العروس ليلتها أن تجنّبك الإذلال، وأن تجعلك تستوي رجلاً بين الرجال. لا.. خيرٌ لك أن تطوي على مالديك، وأن تنسى الموّال الذي تهدّدني به.

ياسين : اكشفي كل سترٍ، وقولي ما تشائين، لا أخشاك.. لا أخشى بذاءتك، ولا أخشى سفاهتك، لكن أقسم لك، ولست بالذي يقسم جزافاً، سأرتكب جريمة، لو مضيت في هذا

المشروع.

فضّة : أتخيفني، وماذا ستفعل؟

ياسين : هذه مسألة لاتقبل العبث، وقد يسيل دم يا فضّة.

فضّة : أأنت تهدّد بالدم؟!

ياسين : وسترين منّي وجهاً لا تعرفينه أبداً.

فضّة : لا أهابك، وافعل ما بدا لك. إني موافقة، وسأزوّج ابنتي لمن يسعدها.

(ينتفض ياسين ناهضاً بغضب وملوّحاً بربابته، تنهض فضّة متوثّبة وبيدها قوّارة الكوسا، يتواجهان).

ياسين : لن يكون هذا الزواج إلا على جثّة واحد منّا.

فضّة : ربما سأ.. **(طرقات متلاحقة على الباب.. يبدوان ذاهلين ثم يتباعدان، وكأنهما يخفيان شيئاً معيباً. بعد فترة تردّد يتّجه ياسين ويفتح الباب، فيجد أديب الناطور، وهو شابّ كثير الحركة والحيوية).**

أديب : عافاك الله يا عمّ ياسين.

ياسين : أهلاً وسهلاً يا بنيّ.

أديب : أوادم الضيعة مجتمعون عند محمّد القاسم، ويريدون أن تكون معهم.

ياسين : أيطلبون حضوري؟

أديب : نعم.

ياسين : وهل تعرف سبب الاجتماع؟

أديب : تعال معي، وستعرف السبب في حينه.

(بينما يرتدي ياسين حذاءه، تنقّل فضّة، التي تبدو كئيبة هائجة، بصرها بين الرجلين.. وتتلاشى الإضاءة).

مشهد ٢

(الإيوان في بيت محمّد القاسم، وهو أحد وجهاء الضيعة. يوجد في الإيوان الشّيخ عبّاس الملاّ، وهو شيخ القرية، وسالم العبد وهو المختار، وعبد الرحمن الدرويش وهو أيضاً من وجهاء القرية، وبسّام الراضي معلم المدرسة يصبّ الشاي ويقدّم الضيافة ولدٌ اسمه حمدان).

الشّيخ عبّاس : أخشى أن نخالف الشرع.

المختار : وفيمَ نخالف الشرع يا شيخ؟

الشّيخ عبّاس : لا أدري.. وجدته دائماً حريصاً على الأصول. رجل يريد الزواج على سنّة الله ورسوله، ويطلب رضى الأهل قبل رضى البنت، ويدفع ما اتّفق عليه في العقد، بل ويزيد. أي أنه يراعي شرع الله في كل ما يفعله.

بسّام : نعم يا شيخ.. مادامت جيوبه متخمة بالمال، فلماذا لايراعي هذه الشكليات؟! كلّنا نعرف أن المسألة في جوهرها، ليست أن يتزوّج، ويكمل نصف دينه، بل أن يشتري البنت كي يستمتع بها خلال زيارته، ثم يرميها لمصيرها.

الشّيخ عبّاس : ربما، إلا أنه يفعل ذلك كلّه في حدود الشرع.

محمّد : ما تقوله يا شيخ سليم. وهو فعلاً يتصرّف في حدود الشرع، وإن كنت أعتقد أن الشرع في جوهره لايقرّ أن يستغل المرء غناه، وأن يتزوّج على نيّة فاسدة.

الشّيخ عبّاس : وما أدرانا بالنوايا يا سيّد محمّد؟

محمّد : ما فعله بالفتاتين اللتين طلّقهما. إنه يتزوّج، وفي نيته أن يتخلّص من المرأة بعد أن يقضي الوطر منها.

(يدخل ياسين وأديب).

ياسين : السلام عليكم.

أصوات : وعليكم السلام.. أهلاً وسهلاً.. تفضّل خذ مكانك.

(يجلس ياسين وأديب، ويسرع حمدان فيقدّم لهما الشاي).

المختار : اجتمعنا يا ياسين، وكان للسيّد محمّد القاسم فضل البادرة، لكي نجد تدبيراً مع هذا البلاء، الذي يحلّ علينا كل بضع سنوات.

أديب : يا عمّ ياسين.. إنه يعني عبّود الغاوي، الذي تعوّد أن نهيئ له كلّما زارنا عذراء لم يمسسها جنّ ولا إنس.

بسّام : ويقال إن أخته زنّوب وضعت عينها على ابنتك المحروسة رباب. فما قولك؟

ياسين : اسمعوني أيها الأوادم.. سأقول لكم جواباً قاطعاً، ولكم أن تنقلوه عن لساني. لن يكون في عروقي دم، ولن تكون فيّ نخوة أو ذمّة إن تمّ هذا الأمر. أفضّل أن أذبحها على أن أدفعها إلى زواج لايفضل البيع شيئاً.

بسّام : حيّاك الله يا عمي ياسين!

محمّد : هذا ما كنت أنوي قوله يا شيخ. إذا وقف كل الآباء موقف ياسين، فإنّنا نستطيع أن نحمي بناتنا دون مخالفة الشرع.

الشّيخ عبّاس : في هذه الحالة، ما تقوله سليم. لايصحّ الزواج دون موافقة وليّ الأمر.

محمّد : إذن لنعقد بين الرجال ميثاقاً. وليكن جواب الجميع ما قاله ياسين.

الشّيخ عبّاس : هذا أمر جائز على ألّا نغلب الناس عليه.

بسّام : لا تخف يا شيخ.. سيتمّ كل شيء بالإقناع.

محمّد : أراك قليل الكلام يا عبد الرحمن! هل أنت معنا في الرأي أم لا؟

عبد الرحمن : إني معكم. وأرجو أن يتمّ كل شيء باللطف ودون مشاكل.

محمّد : اطمئن يا عبد الرحمن، لن تكون هناك مشاكل.

أديب : والآن..

(يُسمع هدير محرّك سيّارة، يتوقّف بعد فترة وجيزة، ينتصب على باب الإيوان «خَلَف الدوري» وهو رجلٌ ذو بنية قويّة، ويعمل مرافقاً لعبّود الغاوي كلّما زار القرية).

خلف : الأمير عبّود الغاوي يستأذن. **(يلوّح بيده، وكأنه يرمي الكلمات)** سيشرفكم بالزيارة، فأوسعوا له المكان.. **(يدير رأسه إلى الوراء)** تفضّل يا سيّدي وأميري.

(يصاب الجميع بالبهوت، وبحركات آلية، ينهضون واقفين. يدخل عبّود الغاوي، وهو بسيط في مظهره ولباسه. وحركاته رغم أناقتها عفوية ولطيفة. مازال الرجال مبهوتين).

عبّود : السلام عليكم يا أوادم.

(يجيبون بغمغمات حائرة، فيما يتقدّم عبّود ببساطة، ويصافح الجميع واحداً بعد الآخر).

عبّود : تفضّلوا.. تفضّلوا.. أعذروني إن جئت دون خبر مسبّق. قلت في نفسي أنت لست غريباً يا عبّود، إنك ابن الضيعة وأهل الضيعة يزور بعضهم بعضاً دون تكليف أو مواعيد، فهل أنا مخطئ؟

الشّيخ عبّاس : **(بحماسة واضحة)** معاذ الله.

محمّد : **(بفتور)** الدار دارك، فتفضّل.

(يهمّ بالجلوس على طرفٍ فيندفع إليه الشّيخ).

الشّيخ عبّاس : **(وهو يرفعه)** لا والله.. لن تجلس إلاّ في مكاني.

عبود : أستغفر الله يا شيخ! ليس بين الأهل تكليف أو مقامات.
(يتجه المختار ومحمّد القاسم نحو عبود).

المختار : طيّب.. خذ مكاني.

محمّد : لن يأخذ مكان أحد. **(يرفعه ويجرّه بحدّة)** تفضّل واجلس هنا. **(يجلس عبود متصدّراً المكان)** والآن تفضّلوا جميعاً، واجلسوا **(متوجهاً إلى عبود)** أعتقد أنك تفضّل القهوة.

عبود : ولِمَ! إني أحبّ الشاي مثلكم.

محمّد : تعال يا حمدان.. بدّل الكاسات، وخمرّ لنا إبريقاً جديداً من الشاي.

عبود : أودّ أن أمتحن ذاكرتي، لا أريد أن تساعدوني. **(ينظر نحو محمّد القاسم)** طبعاً لايمكن أن أجهل السيّد محمّد القاسم.
حين كنّا صغاراً لم يكن يحبّ اللعب معي، وكان يرشقني دائماً بالحجارة، مرّةً شجّ رأسي، وسال الدم على خدّي، ألا تذكر تلك الحادثة؟

محمّد : تلك أيام بعيدة.. ولا تنسى أنّنا شخنا، وشاخت معنا الذاكرة.

عبود : فيك الخير والبركة يا رجل.. لاريب أنك نسيت الحادثة، لأنها لا تعني لك شيئاً. أما أنا فأذكرها كأنّها جرت البارحة.
يومها جئت إليّ، ومسحت الدم عن وجهي، ثم أعطيتني ربع رغيف من الخبز الأبيض، الذي قمّره التنّور. لا أعتقد أني ذقت في حياتي شيئاً أطيب من ذلك الخبز.. أيامها لم نكن نعرف إلا خبز الشعير، نأكله ونغصُّ به.

الشّيخ عبّاس : والله.. مرّت على الناس في هذه الضيعة أيام صعبة.

عبود : ومع هذا يا شيخ، لا أذكرها إلا بالخير. طبعاً لن أخطئ في التعرّف على الشّيخ عبّاس، وهو عالم الدين وحاميه كما تعلمون.

أديب : اهنأ يا شيخ، فالمدائح تنسكب عليك كالمطر المدرار.

الشّيخ عبّاس : السيد عبّود كلّه لطف وذوق.

عبّود : **(ناظراً إلى عبد الرحمن الدرويش)** وهذا الأخ الكريم، فعلى الشبه أقول، إنه من بيت الدرويش. أهو عزّت؟

المختار : لا.. إنه عبد الرحمن. أمّا عزّت فقد أعطاك عمره. مات بالسكتة وهو صغير.

عبّود : لا حول ولا قوّة إلا بالله.. إن شاء الله تكون آخر المصائب.

عبد الرحمن : مشكور يا أخي.

عبّود : **(مشيراً إلى أديب)** أنت صغير يا بنيّ، ولا عتب إن لم أتعرّف عليك.

الشّيخ عبّاس : هذا أديب ابن موسى الناطور، إن كنت تذكره.

عبّود : إيه.. ومن لا يذكر موسى الناطور وسوالفه التي لاتنتهي.

الشّيخ عبّاس : هذا الشاب ابنه، وهو موظّف في الدولة، وله كلمة عند المسؤولين.

عبّود : أحبّ الشباب الطموحين والفعّالين، وفي الأيّام المقبلة سنعرف كيف نتعاون.

أديب : وفي أيّ مجال يمكن أن نتعاون؟

عبّود : لا تستعجل.. لا تستعجل. **(مشيراً إلى بسّام الراضي)** وهذا الشاب الهادئ لم أعرفه أيضاً.

المختار : إنه بسّام الراضي معلّم المدرسة في القرية.

(يأتي حمدان حاملاً إبريق الشاي والكاسات، ويبدأ بتقديم الشاي).

عبّود : لا تعرفون كم أنا سعيد بوجودي في هذه الحضرة. نخبة الضيعة، ورفاق الصبا، وهذا الشباب، أما الأخ سالم، فلم أتعرّف عليه إلاّ بصعوبة، لأنّه، خزيت العين، يزداد شباباً سنة بعد سنة.

الشّيخ عبّاس : والله كلامك صحيح. لم أرَ أحداً لاءمته المخترة مثل أخينا سالم.

أديب : وفي المخترة منافع كثيرة.

المختار : الفعل لكم والصيت لنا، أكلتم كل المنافع، ولم تتركوا لنا إلا الفضلة.

محمّد : الفضلة للفضيل يا مختار.

المختار : هذا هو العزاء الذي بقي لنا.

عبّود : أتعلم يا مختار أني مازلت أذكر أباك. كان رحمه الله رجلاً مهيباً وعظيماً، وكنّا نجفل ونلتصق بالجدران، حين نصادفه في الطريق. ظلّ أبي، حتى مماته، يدعو له بالخير، ويروي لنا كيف شجّعه على السفر، بعد أن خطف الموت أمي، وبلغت بنا الفاقة حدّاً لا يطاق. وبالفعل باع أبي أرضه، وزوّج أختي على مهر، ثم حملني مع أخي الصغير وسافر. في بداية غربتنا عرفنا ألواناً من الشقاء، يحتاج وصفها إلى ساعاتٍ وساعات. في تلك الفترة فقدنا أخي الصغير، وكان أبي رغم تجلّده، لا يكاد يجفّ الدمع في عينيه. يغنّي مواويل الغربة ويبكي. نعم كان يرتجل المواويل مثلك يا ياسين.

الشّيخ عبّاس : هل عرفت ياسين أيضاً؟.

عبّود : ومن لا يعرف الشاعر ياسين، أو يسمع به على الأقلّ!

ياسين : (متأثراً) هذا لطف منك.

عبّود : فعلاً كنت أتمنى لو حفظت يا ياسين تلك المواويل الجريحة، التي كان يغنّيها أبي في الغربة. وحتى حين ابتسم له الحظ، وانفتحت أمامه أبواب الرزق، لم يَخِفَّ إحساسه بالغربة. وكانت دموعه تسيل كلّما عنّت على باله الضيعة. وأنا لا أسرد لكم هذا كلّه إلاّ لكي أخبركم عن وصيّته، وآخر ما نطق به لسانه. أمسك يدي، وهو على فراش الموت، وقال

بصوت متلجلج واهٍ.. أوصيك ألا تنسى البلد وأهلها.. واعلم أنّ لهم نصيباً مما أغدق الله علينا. تلك كانت وصيّته التي صارت همّي، والعبء الذي أحمله على ظهري. أنا أعرف أنّ في الضيعة من يتّهمني بالسفاهة والتقصير، وهناك من يظن أنّ كل ما يشغل بالي هو المتعة والنكاح. ولكن هل يعلم هؤلاء، أني لم أعد مرة إلى البلاد، إلا لكي أقيم مشاريع تساعدها على التقدّم والازدهار. وأنّي في كل مرّةٍ كنت أصطدم بالقوانين، ويحبطني الانغلاق الذي تعيش في ظلّه البلاد. كنت أشعر بالخيبة، ولا أجد ما أفعله إلا تجديد جذوري في الضيعة عبر مصاهرة إحدى العائلات، وتوزيع شيء من المال على المحتاجين من أهلها وأقربائها.

أديب : الآن تغيّرت الأحوال، وعهد الانغلاق انطوى منذ سنوات.

عبود : نعم.. اليوم تغيّرت الأحوال. هناك انفتاح حقيقيّ، وحماية للرساميل، وتسهيلات للاستثمار.. وهذا هو المناخ المثاليّ، كي أنفّذ الوصيّة، وأقيم المشروع الذي أحلم به. المشروع الذي أتخيّله ينعكس على الجميع ثراءً وازدهاراً. هنا، في هذه القرية الجبليّة، المحاطة بالمواقع الأثرية، والطبيعة الخلّابة، سنبني أهمّ مجمّع سياحيّ عرفته البلاد. خلال إقامتي في العاصمة، فاتحت المسؤولين بالفكرة فتحمّسوا لها كثيراً، واتفقنا على معظم الأمور التنفيذيّة.

ياسين : **(بحماسة ساذجة)** هل تعني أنك لم تأتِ من أجل الزواج؟

عبود : ومن يهتمّ بالزواج؟ ألم يخبركم أحد أن العلاقات بين الرجال والنساء في الغرب ميسورة وطبيعية، وأن النساء هناك جميلات، وخبيرات بكل فنون الحبّ واللّذّة! لا.. ما جئت كي نفتح سيرة الماضي. مسحت الإهانات، وكلام السوء

الذي كان يستقبلني ويودّعني، وجئت بسريرة صافية، كي نبني المستقبل ونحوّل هذه المنطقة إلى جنّةٍ عامرةٍ بالخير.

الشّيخ عبّاس : بارك الله فيك.

ياسين : كلام يسرّ القلب.

عبد الرحمن : هذا ما تحتاجه الضيعة، مشروع يشغل الناس ويحسّن أحوالها.

الشّيخ عبّاس : أترون! كدنا نظلمه، وهو الذي جاء كي يغدق خيره على الجميع.

المختار : ما يعرضه السيّد عبّود، سيُبدّل الحياة في هذا البلد بالكليّة.

عبّود : نعم.. هذا ما أطمح إليه. أريد أن يكون النفع عاماً، وأن تعرف هذه القرية بعد طول الحرمان والشقاء، حياة هنيئة ومنعّمة.

الشّيخ عبّاس : اللهم وفّقه، وأعطه على قدر نواياه.

محمّد : لا أعرف ماذا سيكون هذا المشروع؟.. وكيف سيبدّل الفقر نعمةً ورخاءً. ولكن ألا يحتاج الأمر إلى تحضيرات؟ هل حدّدت موقع المشروع، وخطة العمل، ووقت المباشرة؟

عبّود : هذه الأسئلة وجيهة، وهي تدخلنا فوراً إلى الجدّ. أصغوا إليّ جيّداً.. لقد أعدّت مكاتبي في المهجر، كل الدراسات والتصميمات اللازمة للمشروع. وفي العاصمة حصلت على مباركة المسؤولين، وموافقتهم على مختلف الإجراءات التنفيذيّة. إني جاهز للبدء منذ الغد. ولكن المسألة تتوقّف الآن عليكم، فأنا بحاجة إلى الأراضي. وأصارحكم أن المشروع الذي أحمل تصميماته، يحتاج إلى مساحة واسعة. ولاشك أن المنطقة الغربيّة هي أفضل المواقع بالنسبة لي. أنا أعرف مدى تعلّقكم بالأرض، ولكن في أيامنا هذه، أصبح هذا التعلّق فكراً عتيقاً، يقيّد صاحبه، ويعرقل التقدّم في بلده.

وعلى كلّ، راعيت هذا الجانب العاطفي، حين حدّدت المبالغ التي سأدفعها ثمناً لهذه الأراضي. سألت واستفسرت عن السعر المتداول، وفهمت أن أفضل الأراضي لايساوي الدونم فيها أكثر من خمسين ألف ليرة. يا أهل قريتي، ويا أهلي.. هذا المشروع هو في النهاية لكم، ولذا قرّرت أن يصيبكم خيره منذ اللحظة الأولى. سأدفع في الدونم ستّة أضعاف سعره. بلّغوا أهل القرية، بأني سأشتري دونم الأرض بثلاثمائة ألف ليرة.

(تبدو على وجوه الجميع حالة انفعاليّة مقرونةً بالدهشة).

المختار : **(مذهولاً)** ثلاثمائة ألف ليرة!

الشّيخ عبّاس : **(حالماً)** ثلاثمائة ألف!

عبّود : نعم.. ثلاثمائة ألف. وأرجو ألا تطيلوا التردّد، لأن للوقت ثمنه بالنسبة لرجال الأعمال. **(ينهض)** أسعدني كثيراً أن ألتقي بكم بعد سنوات الغياب الطويلة، وأتمنّى أن نعمل معاً، كي نحقّق لهذه القرية الطمأنينة والرفاهية.

(ينهض الجميع مع عبّود، فيودّعهم ويخرج).

الشّيخ عبّاس : ثلاثمائة ألف!

ياسين : هذا مبلغ يقبر الفقر.

بسّام : لست مرتاحاً.

محمّد : فعلاً.. إن هذا لا يدعو للارتياح.

أديب : لا تبالوا.. غداً سأحمل لكم الخبر اليقين.

(يخرجون واحداً إثر الآخر، وعلى وجوههم حيرة وبهوت.. تلاشى الإضاءة).

مشهد ٤

(غرفة زهيّة المؤثّثة بمبالغة وإسراف. في الغرفة زهيّة وكريمة، زوجتا عبود الغاوي السابقتان).

كريمة : هل رأيت الموكب الذي دخل به إلى القرية!

زهيّة : لم أستطع مغادرة البيت. شعرت أني مريضة.

كريمة : أكان ذلك بسببه؟

زهيّة : **(بعنف)** نعم بسببه، كان قلبي يدقّ بعنف، وساقاي ترتعشان، كلّما تخيّلت أني سأراه.

كريمة : إننا لانتحدّث كثيراً. أخبريني ماذا تحسّين؟

زهيّة : ولماذا لا تخبرينني أنت؟.

كريمة : هذا يعني أنك لاتثقين بي. ربّما لانلتقي كثيراً، لكنك لا تفارقين خيالي. أشعر أننا أختان توأمان، وأن النصيب ربطنا بمصير واحد. أتريدين أن تعرفي ماذا أشعر؟ حين لمحته في السيّارة، تمنّيت أن أركض نحوه، وأن أناديه.. خذني معك. من الصعب أن أشرح لك كيف تتناوب عليّ المشاعر. أحياناً أحسّ أني أريد أن أركع عند قدميه، وأن أغمرهما بالقبلات والبسمات. أن أعبّر له عن امتناني لأن ما عشته، وما ذقته خلال زواجنا يساوي عمراً من حياة الناس العادية.. ومرات أشعر أن ما يوجد في إهابه هو شيطان لا إنسان، فأشتمه، وألعن جحوده.

زهيّة : أما أنا فقد أفعمت روحي تلك الجنّة التي أدخلني إليها. لا.. لا أستطيع أن أغضب منه. لا أستطيع أن أكرهه أو ألومه. وحتى لو علمت أنه الشيطان فسأترك الله، أستغفر الله العظيم، وأعبد الشيطان.

كريمة : ماذا فعل بنا هذا العبّود الغاوي! لو أمر خادمه العجيب أن يقتلنا بيسر، لكان أسدى لنا معروفاً. أما الآن فإن حياتنا كالأنقاض، لا نعرف كيف نلملمها أو نعيشها. الغاوي هجرنا. ونحن لم يعد يملأ عيوننا رجل آخر، أو حياة كتلك التي تعيشها نساء الضيعة.

زهيّة : حقّاً.. كأن مسّاً أصابنا، أو وشماً دبغ أرواحنا.

كريمة : فماذا نفعل إذاً؟

زهيّة : وماذا نستطيع أن نفعل؟

كريمة : ليردّنا. ليضمّنا إلى خدمه. ليدخلنا في تجارته ومشاريعه. أتعلمين من يستطيع مساعدتنا؟

زهيّة : أهناك حقاً من يستطيع مساعدتنا؟!

كريمة : نعم.. إنه ذلك الخادم العجيب.

زهيّة : وهل يجرؤ على الالتقاء بنا، دون إذن سيّده؟

كريمة : دعينا نحاول..

(فجأة يظهر الخادم الأحدب، ويتقدّم بحركات احتفالية).

الخادم : هل دعتني السيّدتان؟

زهيّة : (مشدوهة) أنت!

كريمة : لاشك أنك الشيطان!.

الخادم : أهذه شتيمة أم أمنية! لاتجيبي.. أعرف أنها أمنية. وعلى كلٍّ، القلوب عند بعضها. كانت السيّدتان تتحدثان عني، وكنت أنا الخادم الذي برّح به الشوق أبحث عن السيّدتين.

كريمة : (بسخرية) وها نحن نلتقي، هل تحمل لنا رسالة أو خبراً، أم

جئت تسخر منّا؟

الخادم : لا أدري ماذا تحتاج العروستان! هل تتأخر النفقة؟ أم أن المبلغ ضاق عن الحاجة؟

زهيّة : لا.. لاينقصنا المال، بل صاحب المال. نحتاج قربه، والعيش في كنفه.

كريمة : قيل إنه يرتدي مسوح العفّة، وإنه لن يتزوج في زيارته هذه.

الخادم : سمعتِ قولاً صحيحاً. هذه الألعاب الصغيرة ما عادت تثيرنا، في رأسه مشروع كبير، سيغيّر الحياة من أصلها.

كريمة : هو دائماً لديه مشاريع.. وهو دائماً حين يسأم، يعرف كيف يدير ظهره، أمّا نحن فنظل على السرير وسط ملابسنا المبعثرة، لا نعرف كيف ننهض، ولا نعرف كيف نبقى. لانطيق العودة إلى حياتنا السالفة، وليس حولنا أية إمكانية لتكرار تلك الساعات التي عرفناها، وذقناها.

زهيّة : ونحن لا نريد رجال الضيعة، وهم يتحاشوننا، كأنّنا غولتان، أو مصابتان بالجذام.

الخادم : لا.. إنكما تجعلان الدموع تطفر من عينيّ، أنتما أجمل عروسين خدمتهما. لا أتحمّل أن تقاسيا هذا الجحود. لا أدري.. أرجو ألاّ تسيئا فهمي.. لديّ حلّ، وإذا قبلتما فستجدان حياة النعيم التي تليق بكما.

زهيّة : وما هو هذا الحلّ؟

كريمة : أسرع. ماذا تقترح؟

الخادم : لا أدري.. أخشى أن تزعلا.

كريمة : قُل وخلّصنا.

الخادم : أقترح أن تسلّما نفسيكما لي.. سأكون معلّماً، وستكونان أنجب تلميذتين عرفتهما.

كريمة : أنت معلّم! وماذا ستعلّمنا؟

الخادم : لا يغرنكما شكلي، ولا تستهينا بي، إني أعرف أسرار الشهوة والغواية منذ آدم وحتى يومنا هذا. لديّ فنون إذا تعلّمتها المرأة صارت قدراً لايقاوم، وملكة يترامى الرجال كالممسوسين تحت قدميها. سأجعل كلاً منكما فتنةً يدوخ ويغرق فيها أشدّ الرجال زهداً وإرادة.

كريمة : هل نستعيد عبّود؟

الخادم : في البداية ستعملان داخل المملكة التي يبنيها عبّود. وستكونان أفضل مافي تجارته وأعماله.

زهيّة : إذن سنعود إلى جنّته.

الخادم : إذا كنت تسمّين قربه جنّة، فإني أعدك أن تعودي إليها.. ولكن ما أعرضه عليكما واسع الآفاق، ويمكن أن يبني مملكة غنيّة ومستقلّة بذاتها.

زهيّة : ومع هذا.. أريد أن نظلّ في حمى عبّود.

الخادم : لاتخافي.. سنظلّ في حماه وهو في حمانا. سنظلّ معاً حتى تنقضي الأوطار والآجال.

كريمة : دعنا من مجونك! ألديك حقّاً هذه الخبرة التي تدّعيها؟

الخادم : بعد الموافقة، ستكشفان خبراتي ومعارفي.

زهيّة : وافقنا. ألا توافقين يا كريمة؟

كريمة : ليكن.. سأجربه.

الخادم : إذن.. لم يبقَ إلا أن نختم الاتفاق.

(يمسك رأس كريمة بين كفيه، ثم يطبع قبلة على شفتيها. ينتقل بعدئذ نحو زهيّة ويقبّلها على فمها، ثم ينسّل ويختفي فجأة. كل واحدة تضع يدها على فمها، وفي عينيها نظرة ذاهلة).

كريمة : كأنه وضع جمرة على شفتي!

زهيّة : فعلاً، كأنها جمرة!

كريمة : ما أشد غرابته! كنت دائماً أخمّن.. لا.. لاأدري.. لكنّه رجل يفي بوعوده.

زهيّة : (وهي تحضن كريمة) آه.. أشعر أن البهجة تملأ صدري.

(تتلاشى الإضاءة)

الفصل الثاني

بيع الأراضي يثير في القرية هيجانات وصدامات...
وقابيل يقتل أخاه هابيل

مشهد ١

(دكان يوسف العلوني، يوسف وزوجته فاطمة الموعي)

فاطمة : في حياتي لم أرَ الضيعة مهتاجة إلى هذا الحدّ. تقول إنّ موجة عاصفة ضربتها، وزلزلت كيانها.

يوسف : عرف ابن الغاوي كيف يهزُّ دواخل النّاس، ويوقظ شياطينهم.

فاطمة : هذا الصباح، حين ذهبت إلى منهل الماء، شعرت أنّ الضيعة تغيّرت، وأنّ النّاسَ غرباء. تصوّر.. كلّ الّذين التقيتهم كانوا زائغي العيون، شاردي الوجوه، يتحرّكون وكأنّهم يسيرون في نومهم. حتّى النّساء وجدتهن متعبات وصامتات. تملأ الواحدة جرّتها، وتمضي مسرعة إلى بيتها.

يوسف : ماذا تتوقّعين؟! باغت النّاس، وأشعل بينهم فتنة، لا يعرفون كيف يواجهونها. تصوّري.. فجأة حضر، وسكب على رؤوسهم ثروات، لا يتصوّرونها حتّى في الأحلام. لقد أذهلتهم المفاجأة. وهم يخافون أن يمدّوا أيديهم إلى الثّروة، ويخافون أيضاً أن يرفضوها.

فاطمة : ألا ترى أنّ ما يحدث لا يبشّر بالخير!

يوسف : ومن يعرف الآن، إن كان ما يحدث خيراً أم شرّاً. حتماً ستتغيّر أحوال النّاس في هذه الضيعة، وقد تكثر الفلوس في أيديهم. وإذا كثرت الفلوس، ازداد الميل إلى التسوّق

والشراء، وانتعشت التجارة والأعمال. أتعلمين.. لو كان لدينا رأس مال، لوسّعت تجارتي منذ الغد. ولكن ما العمل! ليس لدينا إلاّ هذه البضاعة والسّمعة الطيّبة.

فاطمة : هذا يكفي ويزيد. إنّي أحمد الله، وأبوس اليد وجهاً وقفا.

يوسف : طبعاً.. الحمد لله كلّ دقيقة وكلّ ساعة. **(يقترب منها ويداعب وجهها)** ألا يكفي أنّ الله وهبني هذا الكنز، وأعطانا كفايتنا من الحبّ وأسباب الرّزق؟

(يحاول أن يحضنها ويقبّلها)

فاطمة : **(تتملّص منه بخجل)** استح يا يوسف.. هل نسيت أنّنا في الدكّان!

يوسف : **(وهو يلاحقها بنوع من المداعبة العابثة)** أريد أن يبصر العالم كلّه حبّي لك.

(يدخل خلف الدوري).

خلف : معك حقّ.. والله لو كنت محلّك، لأسمعت باطن الأرض والسماوات السبع أنّي أحبّها. كنت أفضل حظّاً منّي يا يوسف العلوني. أو أنّني بليد. نعم.. كنتُ بليداً. أحببتها منذ كانت مثل فرخ اليمام، وخلال تلك السنوات العديدة، كنت أكتوي بحبّي، ولا أدري كيف أعلنه، أو أبوح به. وبقيت كالحمار أتردّد، وأنتظر، حتّى خطفتها منّي يا يوسف. لو خطفت النّور من عيني، أو نزحت الدم من فؤادي، لكان ذلك أهون عليّ. كنت أفضل حظّاً منّي، ومازال الحظّ الطيّب يختارك ويؤاتيك.

يوسف : **(دون غضب)** ألن تتعب من حكاية هذه السّالفة؟

خلف : ستظلّ هذه اللّوعة تكويني حتّى مماتي.

فاطمة : هذا الحديث عن حبّك يسيء إليّ، ويفضحني يا خلف.

خلف : أنا أفضحك، أو أسيء إليك؟! ما عشت إن عَلِقَت بكِ حبّة غبار

من طرفي. أنا لا أحبّ الثّرثرة، ولكن حين تطفح اللّوعة في صدري.. حين أراكما.. وحين وجدتكما.. وأنتما.. وأنتما.. لم أتمالك نفسي، ووجدتني أبوح بما يعتمل في صدري.

يوسف : طيب، ونحن.. ونحن.. ماذا تريد أن نخدمك؟

خلف : قلت لك.. الحظّ يحالفك، وما جئت لأشتري، بل لأقدّم لك.

يوسف : وماذا ستقدم لي؟

خلف : اسمع يا يوسف! درس معلّمي أحوال الضيعة، وما ستحتاجه حين تمتلئ جيوب النّاس. فوجد أنّ ما ينقصها هو محلّ تجاريّ ضخم، تتوفّر فيه كلّ أنواع البضائع، الّتي سيحتاجها النّاس في الفترة المقبلة. محلّ ضخم يوجد فيه كلّ مايخطر على البال من غذاء ولباس وآلات، يسمّونه في البلاد الأجنبيّة، سوبر ماركت. في البداية فكّر أن ينشئ هذا المحلّ، ويجعله جزءاً من مشروعه. ولكن يا الله... ما أشدّ خوفه من قطع الأرزاق! عَرفَ أنّ قيام محلّ تجاريّ ضخم سيقضي على دكّانك، ويصيبك بالإفلاس، فقرّر أن يعرض عليك الشراكة، وتوسيع التّجارة.

يوسف : عبّود الغاوي يريد شراكتي؟!

خلف : سنعتبر هذا الدكّان بداية صغيرة لها حسابها، وسيمدّك بالمال اللاّزم لتوسيع البناء والتّجارة معاً. وبهذا الشّكل يلبّي حاجة الضيعة دون أن يضرّ أحداً فما قولك؟ هل يحالف الحظّ ابن امرأة كما يحالفك؟

يوسف : (مشدوهاً) ما قولي! وهل أعرف ما قولي! فاطمة! من كان يصغي إليّ حين تحدثت عن توسيع التّجارة؟ الله.. أم الشيطان!

فاطمة : أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم! هذا علمه في الغيب يا

يوسف.

خلف : لا.. لن تتردّد أمام عرضٍ، لا تحصل عليه إلاّ إذا استجابت لك ليلة القدر.

يوسف : ألم أقل لك يا فاطمة.. إنَّ ابن الغاوي عرف كيف يهزّ دواخل النّاس، ويوقظ شياطينهم. أحسّ الفتنة، وأحسّ المال يتساقط علينا كالمطر الدافئ. ماذا تقولين؟ وما رأيك؟

فاطمة : لا أدري، أنت أدرى بأمور تجارتك.

خلف : عجيب.. وأنا الّذي كنت أتوقّع أنّك ستزغرد، وتطير من الفرح!

يوسف : طبعاً.. في داخلي صوتٌ يزغرد، وفي داخلي اهتزاز وشراهة تصيح. طبعاً.. لا أستطيع أن أقول لا. وأنا جاهز للشراكة وتوسيع التّجارة.

خلف : هذا هو القرار الحكيم. لو عاندت حظّك لتخلّى عنك. سأخبرك متى تأتي لتوقيع الاتّفاق، وإجراء الترتيبات. ولا تنسى يا يوسف العلوني أنّك أحسن حظّاً منّي.

(يغادر الدكّان.. بعدأن يختفي، تتقدّم فاطمة إلى الباب وتغلقه، تستدير وتقترب من زوجها وفي عينيها نظرة متوجّسة وخائفة).

فاطمة : احضنّي!

يوسف : **(وهو يحضنها)** هذه مكافأة تضاعف ربح اليوم.

فاطمة : ضمّني بقوّة، ولا تتحدّث عن الرّبح.

يوسف : ماذا هناك؟

فاطمة : لاشيء.. أشعر بانقباض وخوف.

يوسف : ما أشدّ حساسيتك!

فاطمة : ضمّني ولا تتكلّم.

(تتلاشى الإضاءة).

مشهد ٢

(في البرّيّة، كرم تين، تينة متأجّجة الخضرة، وترخي غصونها حتّى تمسّ الأرض، ولذا لايميّز المرء الجالس تحتها إلا بصعوبة. فضّة تقطف ثمار التين، وتضعها في سلّة تحملها. بين الحين والآخر تتلفّت حولها. يأتي عبد الرحمن الدرويش بخطوات قلقة متلفتاً هو الآخر ذات اليمين وذات الشمال).

فضّة : هل رآك أحد؟

عبد الرّحمن : لا أظنّ.

فضّة : إذن أسرع، وأختبئ تحت التّينة العبيّة.

(يمضي عبد الرحمن نحو التّينة، التي ترخي غصونها حتّى تلامس التّراب. تستمرّ فضّة في قطاف التّين وهي تتطلّع قلقة حولها. عندما تطمئّن أنّه لايوجد أحد في الجوار، تسرع وتنضم إلى عبد الرحمن).

عبد الرّحمن : لماذا جلست بعيداً عنّي؟

فضّة : لعن الله هذا العمر. تعبت من الخوف. تعبت من اللّهفة. تعبت من الانتظار. تعبت من الكذب. تعبت من الفقر. تعبت من كلّ شيء.

عبد الرّحمن : (يقترب منها، ويضمّ بذراعه اليمنى كفيها) ماذا هناك؟ هذه المرارة توجعني، هل تقصدين لومي؟

فضّة : لا أعرف من ألوم! أنت، أم أنا، أم هذه الدّنيا، أم نحن

جميعاً! سنوات من الهوى المجنون... ومع هذا لا نلتقي إلاّ خلسة، ولا نذوق إلاّ متعة ينغّصها الخوف. لم يبق حجر ولا صخرة، ولا شجرة عبيّة، ولا خرابة، إلاّ وشهدت عُرينا، وتركت وسخها وعلامتها على جسدينا.

عبد الرحمن : (وهو يلحس أذنها مداعباً) ألا تدرين يا روحي، أنّ هذا الخوف المرتعش، هو الذي يؤجّج الحبّ في قلبينا، ويضاعف اللّذّة في جسدينا!

فضّة : ولكنّي تعبت.. أنت لاتعرف كم أشتهي الاسترخاء بعد المعاشرة! هكذا.. أن أسترخي على سرير واسع، وأنت إلى جواري، وأن نغفو لحظات، وأن نشعر أن العالم بعيد، كأنّه رحل ونسينا.

عبد الرّحمن : يا الله.. ما أجمل ما تقولين! أحسّ هيجاناً لذيذاً يسري في جسدي.

فضّة : نعم.. نبدأ بالهياج، ثمّ نفعلها ونحن نتلفّت خوفاً. ثمّ نسوّي ملابسنا، ونمضي. أنت إلى الرّاحة والعزّ، وأنا أعود إلى الشّقاء والفقر.

عبد الرّحمن : هذه المرارة التّي تتحدّثين بها، تضغط على عنقي يا فضّة، قولي ماذا هناك؟

فضّة : لاشيء.. ياسين يعرف عنّا أكثر ممّا توقّعت. وابن الغاوي لم يأت هذه المرّة كي يتزوّج، وأنا تعبت من الحبّ فوق الحجارة، والتراب، قل لي.. ماذا تنوي أن تفعل بالفلوس التي ستقبضها؟

عبد الرحمن : أيّة فلوس؟

فضّة : فلوس الأراضي التي ستبيعها؟

عبد الرحمن : وما أدراك أنّي سأبيع؟ لم أقرّر بعد.

فضّة : ولماذا لم تقرّر؟ هذه فرصة لن تتكرّر. نعم ستبيع.. وسيكون معك مال كثير. أجل.. مال كثير. هل تحبّني فعلاً يا عبد الرّحمن؟

عبد الرّحمن : إنّي لا أعرف كيف أجمّع ما تقولين! تريدين أن أبيع! ليكن.. سأبيع.

فضّة : (تقاطعه بلهفة) أتفعل ذلك من أجلي؟

عبد الرّحمن : كنت ميّالاً للبيع. وجاء كلامك الآن، فحسم تردّدي.

فضّة : نعم.. ستبيع، وستملأ جيوبك أكداس من المال.

عبد الرّحمن : لا أفهم إلحاحك على المال. ماذا تخفين؟

فضّة : طبعاً.. لن تفهم إلحاحي على المال. عشت دائماً ميسور الحال. أمّا أنا فقد عشت حياتي كلّها في العوز والحرمان. كنت دائماً أحتاج إلى المال، وأحلم به.

عبد الرحمن : حاولت ألاّ أقصّر، هل قصّرت؟

فضّة : لا.. أنقذتني مرّات من الجوع والبهدلة، ولكن مالك لم يكن وفيراً.

عبد الرحمن : لاشكّ أنّي قصّرت، كان ينبغي أن أعرف متى تحتاجين، وأن أسعفك وقت حاجتك.

فضّة : (وهي تعانقه) لاعليك.. ليس هناك ما تلوم نفسك عليه. قل لي.. هل ترغب بي حقّاً؟

عبد الرحمن : لا أرغب بشيء في الدّنيا أكثر منك.

فضّة : (وهي تندسّ فيه) إذن.. دعنا نسافر.

عبد الرّحمن : نسافر! إلى أين؟

فضّة : إلى أيّ مكان بعيد، إلى مدينة بعيدة، لا يعرفنا فيها أحد.. أنا وأنت ومعنا مال كثير. ستشتري لي ثياباً جميلة، وعطوراً فاخرة. سنأكل في مطعم وسننام في فندق. فراش واسع ونظيف. نتلاعب عليه، ونتبغدد طوال اللّيل، تخيّل، سنقضي اللّيل معاً، وسأنام على زندك، وتنام على زندي.

عبد الرحمن : (وهو يغلغل يده تحت ثيابها) آه.. هذا جميل.. هذا جميل جدّاً.

فضّة : (هامسة) سنكون جميلين، وسنمحو العمر الشقيّ من ذاكرتنا، هل وافقت؟

عبد الرّحمن : (وهو يلهث) سأشتري لك ثياباً جميلة، وعطوراً فاخرة، وسأحملك بسيّارة جديدة إلى مدينة بعيدة.

فضّة : سأطلب الطلاق من ياسين.

عبد الرّحمن : أطلبيه.. أطلبيه.

فضّة : وأنت.. ماذا ستفعل؟

عبد الرّحمن : إنّي أحلم.. هذا حلم جميل.. جميل.

فضّة : (فجأة تنهض غاضبة) دعني.. إنّك تتكلّم كالمسطول. أتظنّ أنّي أحلم! لا إنّي جادّة. هل تسمعني؟ أنا جادّة وأعني ما قلت.

عبد الرّحمن : يا الله!.. اهدئي قليلاً.

فضّة : لن أهدأ.. أعطيتك أجمل سنوات عمري. كنت تفعل بي ما تشاء، وحين تشاء. أجمل سنوات عمري، وأنا أصلّي في محرابك. لم يخطر ببالك مرّة أن تعطيني شيئاً، أن تمنحني أملاً، أن تتخيّل لنا مستقبلاً. تعبت من الغمز واللّمز، تعبت من الاستلقاء على الحجارة والشّوك. ولايمكن أن نواصل على هذا النّحو. لا يا عبد الرّحمن، إنّي جادّة، سأنتظرك يوم تقبض ثمن أراضيك، فإذا عزمت، تعال وسأكون جاهزة. وإذا لم تعزم، فلن يكون بيننا لقاءٌ بعد اليوم.

(تتركه وتمضي)

عبد الرّحمن : يا الله! انتظري قليلاً.. يجب أن نتكلّم.

فضة : (وهي تبتعد) تكلّمتُ أكثر ممّا يجب، وليس لديّ ما أضيفه.

عبد الرّحمن : (وحيداً) يا الله.. لم أعرف كيف أجمّع كلامها، وأفهم مغزاه. لاشكّ أنّها جادّة.. يقيناً أنّها جادّة.

(تتلاشى الإضاءة).

مشهد ٣

(بيت ياسين. ياسين وابنته رباب)

ياسين : (يعزف ويدندن)
يا أسمر السمر.. آه..

رباب : (تردّد وكأنّها تشجعه) آه..

ياسين : يا أسمر السمر ياما عيّروني فيك.

رباب : فيك..

ياسين : وكلّ ما عيّروني فيك زدت رغبة فيك.

رباب : فيك..

ياسين : إنت الورد بالسّحر وأنا النّدى بسقيك.

رباب : بسقيك..

ياسين : إنت الثريّا وأنا الميزان برعى فيك.

رباب : (تصفّق) طيّب الله هذا الصوت.

ياسين : ما أحلى وجودك قربي! لولاك لما استطعت البقاء يوماً واحداً في هذا البيت.

رباب : وولداك!

ياسين : إنّي أحبّهما، ويتقطّع قلبي حين أتخيّل أنّهما يكدحان في المدينة، كي يؤمّنا مصاريف الدراسة والحياة. ولكن أشعر أنّ أحداً في هذا البيت، لا يفهمني، أو يتعاطف معي سواك..

رباب : لا يا أبي.. الجميع يحبّونك، ويحفظون لك حقّك من

الاحترام.

ياسين : أعرف كم تتمنّين إصلاح الأمور، وأن تسود المحبّة هذا البيت. لكن ماذا أقول لك! هناك فساد قديم لا يمكن إصلاحه يا رباب.

رباب : أهي علاقتك بأمّي؟

ياسين : دعيك من هذا. هناك أمور لاتقال. ولا تظنّي أنّي لا أدرك جانبي من المسؤوليّة، وأدرك أيضاً أنّ لهم الحقّ في لومي. ماذا أفعل! لم يورثني أبي إلاّ كرم التّين المليء بالصّخور، ولم يعلّمني إلاّ ارتجال المواويل والغناء على الرّبابة. في الأيّام الخوالي كانت العائلات تتخاطفني، وكانت القرى تتسابق لدعوتي، وبلغ صيتي قرى نائية لاتخطر على البال، في تلك الأيّام كانت الفلوس تجري في يدي، وكنت أنفق على البيت دون حساب. عمري ما احترمت الفلوس، وما تعلّمت كيف أختبئ قرشي الأبيض ليومي الأسود. ثمّ بدأ الزمن يغدر بالشاعر، ويأتي محمّلاً بهذه الآلات العجيبة. جاء الراديو ثمّ آلات التسجيل، ثمّ التلفزيون.. ويوماً بعد يوم كان يتوارى ذكر الشاعر، وينساه النّاس. قلّت الدعوات، ثمّ ندرت، ثمّ لم يعد الشاعر يسافر إلاّ لأنه يحبّ السّفر، ويغذّي أشعاره بالترحال. نعم.. عندما كبرتم، وازدادت حاجاتكم تضاءل عطاء الأكارم، وشحّ المال في يدي.

رباب : (**عيناها دامعتان**) لاتلم نفسك يا أبي.

ياسين : هل تبكين يا رباب؟ كلّ ما عانيته لا يساوي دمعة واحدة من عينيك. ولديّ خبر مفرح لم أقله لك بعد.. بدأ الحظّ ينقلب، ويفتح أمامي الأبواب. هذا سرّ بيننا. إنّ عبّود الغاوي مسحورٌ بمواويلي وغنائي. ألم تلاحظي! حين يسهر في

القرية، لا يستطيع أن يستغني عن وجودي. بل وطلب منّي أن أجهّز نفسي، كي أذهب معه إلى العاصمة. يريد أن يسجّل كلّ مواويلي على أشرطة وأسطوانات. قال لي إنّ الجالية في المهجر متعطّشة لهذا اللّون من الفنّ الشعبي، وأنّهم سيتخاطفون الأشرطة والأسطوانات، وسيكون لي دخلٌ وفيرٌ ومستمرّ.

رباب : هل أنت مطمئنّ يا أبي؟

ياسين : في البداية، لم أكن أطيق ذكره. وحين فاتحتني أمّك، طار الصّواب من رأسي.. أنت تعرفين ما جرى بعد ذلك.. والاعتراف بالحقّ يا ابنتي فضيلة. تبيّن أنّ الرّجل حريص على أهل قريته، وأنّه ما جاء إلاّ لكي يساعدهم، ويوفّر لهم البحبوحة والازدهار. خذي حالتي مثلاً.. كان يمكن أن أموت، وأن يموت معي كلّ ما جاءت به قريحتي. لكنّ الرّجل بدا مرهفاً وكريماً. قدّر فنّي، وأخذ بيدي. أنا لم أطلب شيئاً.. بل هو الذي اقترح أن يسجّل مواويلي كي يحفظ ذكري، ويساعدني على رزقي. لا.. إنّ الرّجل شهم، وإنّي مطمئنّ إلى شهامته.

رباب : هناك من يتوجّس من مجيئه، والمشروع الذي يبنيه. وفي الضيعة تدور أقاويل وتخمينات كثيرة.

ياسين : هذا مايبرع به أهل ضيعتنا.. النمائم والقيل والقال. بعض النّاس لايرحمون، ولا يتركون رحمة الله تصيبهم. اطمئنّي يا ابنتي، من كثرة ماصاحبت وعاشرت، صار أبوك يعرف كيف يزن الرّجال، ويميّز سجاياهم. **(يضع الرّبابة في كيس مخمليّ ويتأهّب للخروج)**. سأذهب الآن. **(يتوقّف ويلتفت)** أين أمّك؟

رباب : ذهبت كي تقطف كرم التّين.

ياسين : (وهو يخرج) قولي لها إنّي سهران عند الغاوي. (يخرج)

رباب : إذا لم يكن ابن الغاوي جادّاً، فستقضي الخيبة عليه. يا ربّ.. لا تخيّب مسعاه، ولا تحبط أمله. (يتغيّر وجهها) وماذا لو كان مايفعله ابن الغاوي خطّة لاصطيادي! أيمكن أن تمرّ على أبي هذه الألاعيب! أف.. منذ جاء لم نعد نعرف الهدوء والسكينة.

(يدخل بسّام الرّاضي، فيرى رباب تخفي وجهها بيديها).

بسّام : رأيت أباك يخرج، فانتهزت الفرصة.

رباب : ستأتي أمّي عمّا قليل.

بسّام : أتطلبين أن أخرج؟

رباب : لا.. لم أعنِ ذلك.. تفضّل واجلس.

بسّام : جئت لأقول لكِ.. سأفاتح أهلكِ بالموضوع غداً أو بعد غد.

رباب : أفضّل أن تؤجّل ذلك..

بسّام : أخبرت أبي، وسيأتي معي، فلماذا التأجيل؟

رباب : لا أدري.. لست مستعدّة الآن.

بسّام : وماذا يمنعك؟ منذ فترة كنت راضية، أو هذا ما بدا لي.

رباب : أجل.. أحببت كلامك عن المساواة بين الرّجل والمرأة. والعمل المشترك ضدّ الأفكار البالية، والتقاليد المتخلّفة. أعجبني تقشّفك وحديثك عن عشّ زوجيّ مفروش بالبسط اليدويّة والطراريح، وموقدة الحطب، ولكن.. لا أدري.. بعد فترة، اكتشفت أنّ هذا وحده لا يكفي.

بسّام : ولماذا لايكفي! قولي بصراحة، أتحبّينني أم لا؟

رباب : آه.. الحبّ! مازلت صغيرة يا بسّام، ومشاعري تموج متغيّرة كتقلّبات الرّيح. إنّ لديّ أحلاماً كثيرة، وأحياناً أحسّ أنّ

الدنيا أضيق من أن تتّسع لطموحي وإمكانياتي.

بسّام : هذه بداية الدّاء. البريق يجذب، والثّروة تغوي. ولعلّك تنتظرين زيارة ابن الغاوي وأخته.

رباب : أهذا رأيك فيّ؟

بسّام : آسف. أردّد الشّائعات، لأنّ ما تقولينه يبدو كالمراوغة أو الهروب.

رباب : **(بعنف)** لست الفتاة التي تقبل أن تباع، وليس هناك ما أهرب منه، ما قلته لك هو الصّدق. أحسّ أنّ مشاعري تموج، وتتغيّر، وأحلامي الغامضة والمثقلة بالوعود، ليس للزّواج مكان فيها.

بسّام : **(بلهجة واخزة)** وبماذا تحلم الآنسة يا رباب؟

رباب : **(تغمض عينيها، وفي لهجتها شيطنة)** آه.. مثلاً أحلم أن أسافر وأبي. لا نحمل شيئاً إلاّ ربابته وأغانيه. نتوه في الدّروب متنقّلين من بلدٍ إلى بلدٍ، وأينما حللنا ننشر حولنا فرحاً ومواّلاً.. آه.. من الصّعب أن تفهم ما أحلم به. **(تنصّت بانتباه)** أعتقد أنّ أمّي جاءت. أرجوك أن تخرج ولا تحرجني معها.

بسّام : سأخرج.. ولكن أرجوك أن تفكّري جيّداً، ولاتدعي النزوات تضيّع فرصة عمرنا.

رباب : **(وهي تدفعه)** طيّب سأفكّر.. أعدك أن أفكّر.

(يخرج.. وتتلاشى الإضاءة).

مشهد ٤

(مصطبة أمام بيت المختار يغطّيها حصير من القشّ، وبضعة مساند، المختار، ضرغام، أبو راغب).

ضرغام : ما النّصيحة يا مختار؟

المختار : (حادّ الصّوت) كم مرّة يجب أن اقول، وأعيد، هذا موضوع أتمنّى أن يقدّره كلّ واحد بنفسه، أو مع قرابته.

ضرغام : وزنتها كثيراً ولم أصل إلى قرار. هذا الرّجل قلب حياتنا عاليها سافلها. أحسّ بالاختناق إن وافقت، وأحسّ بالاختناق إن رفضت.

أبو راغب : والله هذه حالنا جميعاً. وفوق ذلك يأتيك إلحاح الولد. فجأة تدير المصاري رأسه، فيبدو كالسكران، يريدأن يبني، وأن يتزوّج، وأن يعرف الدّنيا ولذّتها.

ضرغام : ولَك يا عمّي، الولد، والمرأة والبنت.. ولَك أنا نفسي. ألا يحقّ لنا أن نرتاح من ثقل الديون، وأن نعرف بحبوحة العيش، ولو فترة قصيرة من العمر؟

أبو راغب : وهناك من يقول.. من باع أرضه هان عليه عرضه. وتعال دبّرها، ماعاد المرء يعرف من يسمع، ومن يطيع.

المختار : يا جماعة الخير.. المسألة لا تحتاج إلى هذه الحيرة كلّها. إذا كان المرء محتاجاً، ولايحلّ ضائقته إلاّ مبلغ كبير، فعليه ألاّ يتردّد. والحقيقة أنّ الرّجل يفتّ مبالغ تفوق الأرض قيمة،

ولاتترك في النّفس باباً للندم.

ضرغام : ما تتفضّل به يا مختار على الرّأس والعين.. حين أتصوّر أنّي بلا أرض أشعر «حاشا الحضرة» كأنّي أمشي بين النّاس بلا لباس، أو أنّني تركت الضيعة، وصرت غريباً لا مقام لي إلاّ مع وحوش البرّيّة.

أبو راغب : حلفتك بالله يا مختار.. هل ستبيع جزءاً من أراضيك أم لا؟.

المختار : (متضايقاً) ما كان يجب أن تحلّفني. قلت وأعدت.. لا أريد أن أؤثّر على أحدٍ في قراره.

ضرغام : أنت مختارنا وتعرف الأمور خيراً منّا.

(ينضم الشّيخ عباس إليهم ويتبادلون التّحيّة).

المختار : شرّفت يا شيخ، تفضّل.

الشّيخ عبّاس : لا.. لدينا شغل. جئت كي أصطحبك معي في مشوار ضروريّ.

ضرغام : من حقّنا على المختار، أن يرشدنا إلى الصّواب قبل أن يمضي.

الشّيخ عبّاس : وما هي المسألة؟.

أبو راغب : سألناه إن كان سيبيع جزءاً من أراضيه!

الشّيخ عبّاس : وأنا أقول لكم المختار سيبيع.

المختار : لا يا شيخ.. في هذا الموضوع، دع كلّ واحد يُخرج موّاله من رأسه.

الشّيخ عباس : لن نخفي عنهم شيئاً، والنصيحة واجبة. المختار سيبيع، وأنا سأبيع، ومجنون من لايبيع.

ضرغام : الأرض غالية يا شيخ.

الشّيخ عبّاس : وابن الغاوي يبدّل ترابكم تبراً.. أي ذهباً. الأرض غالية، لكنّها ليست أغلى من الثروات التي يبادلكم بها.

أبو راغب : أما كان أجدادنا يقولون من باع أرضه هان عليه عرضه؟

الشّيخ عبّاس : إذا دخلتم في الأمثال والسّوالف ضعتم. ولو عُرضت على

أجدادنا هذه الأسعار المجزية، لما ورثتم أرضاً ولا أمثالاً.
اهتدوا بالله، وبيعوا الفقر والتّعتير. يا الله يا مختار..

المختار : **(وهو ينهض)** أنا لم أقل شيئاً.

الشَيخ عبّاس : ضعوها في رقبتي، ووزرُها عليّ.

ضرغام : اللّهم اهدِنا إلى ما فيه الخير.

أبو راغب : آمين..

(يخرج الجميع.. وتتلاشى الأضواء).

مشهد ٥

(بيت محمّد القاسم، أديب النّاطور، سميرة بنت محمّد القاسم)

أديب : **(وهو يمدّ يده إلى صدرها)** أنتِ الينبوع، وقلبي يتفحّم ويسودّ من العطش.

سميرة : **(مبتعدة خافتة الصّوت)** احذر! سيخرج أبي بين لحظة وأخرى.

أديب : ماعدت أخشاه. هذا وقتنا، والرّيح تؤاتينا.

سميرة : وما الّذي تغيّر؟

أديب : إنّ كلّ شيء تغيّر يا قمري. لن يبقى مجال في هذه الضيعة إلاّ وسيناله التغيير، من البيوت الطينيّة إلى الطعام واللّباس حتّى العادات. تخيّلي! أنا ابن الناطور.. قد تجري الفلوس في يدي كالماء.. وخلال أيام قليلة، سترتدين هذا الجسد الشّهيّ أحدث الملابس المستوردة من عواصم التقدّم والمدنيّة. حمّالات من الحرير تدغدغ هاتين اليمامتين، وألبسة شفّافة تزيد البشرة فتنة، والتفاصيل روعة. أعاهدك ألاّ ترتدي هذه الثّياب فتاة قبلك، وستكون تلك هديّتي الأولى لعينيك.

سميرة : إنّ كلامك يفتل الرّأس.. ما أبرعك في تصوير كلّ شيء!

أديب : سميرتي، وقمري.. إنّ حبّي ليس كلاماً، ولا براعةً في التصوير. إنه هنا.. حيّ وملموس. إنّه يتوجّع ويحلم، إنّه

عصارتي، وزبدتي، والدم الذي يجري في عروقي.

سميرة : يا الله.. إنّك تجعلني أشعر.. لسانك يدوّخني كالخمر.

أديب : وأنا.. أتظنّين أنّي لا أدوخ حين أراك، وحين ألمح أنّك تبادلين حبّي قبولاً ورضى؟

سميرة : **(بكآبة)** ومافائدة قبولي؟ لن يوافق أبي مهما فعلت.

أديب : دعي أباك عليّ.

محمّد : **(يأتي صوته من الدّاخل)** مع من تتكلّمين يا سميرة؟

سميرة : **(مرتبكة)** هذا أديب الناطور يسأل عنك يا أبي.

(يتغامزان.. ثمّ تسرع سميرة في الخروج، بعد قليل يدخل محمّد القاسم).

أديب : السّلام عليك يا عمّ.

محمّد : وعليك السلام. لماذا لا تجلس؟ تفضّل.

(يجلس محمّد القاسم، ثمّ يجلس بعده أديب).

محمّد : ماذا جئت تحمل لنا؟

أديب : سألت يا عمّ واستفسرت.

محمّد : وماذا وجدت؟

أديب : كلّ ماقاله صحيح. وهناك مسؤول كبير يرعى المشروع، ويقدّم له كلّ الدّعم الذي يحتاجه. إنّهم يعتبرون أنّ السّياحة هي الصناعة التي تلائم بلادنا وإمكانياتنا. لأنّ كلّ ما تحتاجه السّياحة هو التّاريخ والطبيعة الجميلة. ونحن نملك كنوزاً من آثار الحضارات وبقاياها، ونملك أيضاً تنوّعاً مدهشاً في المواقع والطبيعة. وجدتهم يا عمّ متحمّسين. وهم يعتقدون أنّ هذا المشروع سيكون جزءاً من ملحمة التقدّم التي تعيشها بلادنا بعد أن اختارت سياسة الانفتاح.

محمّد : وما هي زبدة الكلام؟

أديب : زبدة الكلام ما قلته لك.

محمّد : ألم يذكروا شيئاً عن أهالي الضيعة؟ ماذا يتوقعون منّا، وهل هناك إجراءات يمكن أن يتّخذوها؟

أديب : الحقيقة لم يذكروا شيئاً يخصّ الأهالي.. ولكن أستطيع أن أخمّن من الحماسة التي تحدّثوا بها عن المشروع، أنّ أيّ عرقلة ستضايقهم جدّاً.

محمّد : وما هي الأمور التي تعرقل المشروع في رأيك؟

أديب : المقاطعة.. أو تحريض النّاس.. أو الاحتجاج.. الحقيقة لست أدري.. لم يذكروا شيئاً عن النّاس.. وكلّ ما استطعت أن أعرفه، هو أنّ حماستهم كبيرة للمشروع.

محمّد : هل ستبيعون أرضكم؟

أديب : أنت تعرف عناد أبي، ولكنّي أعند منه. غرّبت به وشرّقت، قرّبت له وأبعدت، حتّى لان، واقتنع.

محمّد : وممّ ستعيشون إن بعتم أرضكم؟

أديب : هناك فوائد الأموال.. وهناك عملٌ ينتظرني في المشروع.

(يدخل الشّيخ عبّاس والمختار، ينهض محمّد القاسم وأديب. يتبادلون التحيّات ثمّ يجلسون).

الشّيخ عبّاس : **(إلى أديب)** كيفما تحرّك المرء يتعثّر بك.

أديب : لأني لا أستطيع أن أستغني عن بركاتك أبداً.

الشّيخ عبّاس : إذن.. خذ البركة، وافرقنا برائحة طيبة.

أديب : أتطردني يا شيخ، ومن بيت عمّي محمّد القاسم، أتوافقه يا عمّ؟

الشّيخ عبّاس : دعك من الهزل، هناك أمور خاصّة سنتداول فيها.

أديب : طيّب.. طيّب **(وهو يخرج)** أتمنى لكم مداولة بنّاءة.. وإيّاك يا شيخ والسّياسة.

الشّيخ عبّاس : أف.. ما أطول لسانه!

(يدخل حمدان حاملاً صينية عليها إبريق شاي وكؤوس زجاجيّة مذهّبة الحوافي.. يقدّم الشاي للجميع).

المختار : ولكنه ولد نبيه، ويعرف كيف يقنص زمانه.

الشيخ عباس : لم نأت كيف نتحدّث عن ابن الناطور. أما زلت تتردّد يا محمّد؟

محمّد : ينبغي أن أستشير ابني الذي يدرس في الجامعة.

الشيخ عباس : وهل تعتقد أنّه سيرفض؟ انظر.. ألا ترى كيف يتوافد كلّ الذين يعملون، أو يدرسون في العاصمة، وبقية المدن؟

المختار : يا لطيف.. منذ شاع خبر المشروع وسعر الأراضي، توافدوا كالزنابير الحامية، وكلّ واحد يسأل عنا حصّته.

محمّد : لا تنسَ يا مختار أنّنا عائلة تعوّدت أن تزيد أراضيها، لا أن تفرّط بها.

الشيخ عباس : كلّنا نعلم أنّك لن تبيع أرضك عن حاجة، ولكن إذا كان الله قد رزقك وأغناك، فإنّه لا يجوز أن تتّخذ هذا الغنى سبباً، كي تعرقل مشروعاً ستصيب فوائده النّاس كافّة.

محمّد : ما هذا المشروع الذي يمكن أن يعرقله رجلٌ واحد، لا يريد أن يبيع أرضه؟

الشيخ عباس : أنت تعرف يا ابن القاسم أنّ أرضك بمساحتها وحسن موقعها، ليست كالأراضي الأخرى، أتريد الصراحة؟ أشعر أنّك لا ترفض حرصاً على الأرض، وأنت أغناك الله، كثير الأراضي والأملاك، بل لأن في القلب شوائب لم يمحُها الزّمن، ولم يمحُها ما أبداه من غيرة نحو قريته وأهله.

محمّد : ولماذا تظنّ أنّ في قلبي شوائب وضغائن؟

الشيخ عباس : أعرف سماحتك، وأعرف حبّك للخير. ولولا أنّ الضّغينة عميقة في صدرك، لما ارتضيت لنفسك أن تعرقل مشروعاً فيه خير للجميع. صدّقني.. ولو أراد ابن الغاوي، لما احتاج إلى استعطاف أحد. ولو شاء، لنال ما أراد بثمن هزيل، وجهدٍ قليل. أخبره يا مختار ماذا عرضوا عليه في العاصمة!.

المختار : علمت أنّهم عرضوا عليه أن تستملك الدّولة الأراضي التي

يحتاجها مشروعه، وبالسّعر الذي تحدّده. لكنّه رفض وقال: «هذه بلدي، وسكّانها أهلي، وأنا ما جئت كي أنهب أرزاقهم، بل كي أغدق عليهم ممّا رزقنا الله».

الشّيخ عباس : هذا الرجل نادر المروءة، وهو يوفّي صلة القربى بقلبٍ صافٍ وسخاءٍ وافٍ. كان يستطيع أن يحوز أراضينا بالقروش، لكنّه أبى وأصرّ على شرائها بالرّضا، وبأسعار تشفي الفقير من فقره، وتضاعف غنى الغنيّ. فهل يجوز يا ابن القاسم بعد هذا كلّه، أن تعرقل مشروعه؟.

المختار : وأعتقد أنّ المسؤولين حريصون على رضاه، وهم مستعدّون لإزالة كلّ عقبة تعترض مشروعه.

محمّد : (بصوت حادّ ومقهور) سأبيع.. سأبيع. ولا تزيدا كلاماً عنه.

الشّيخ عباس : وفقك الله.. إنّك تتّخذ قراراً حكيماً، فعلامَ تغضب؟

محمّد : هذا الأسلوب في الترغيب والترهيب، وتلك التهديدات المبطّنة.. كفى يا شيخ.. بعتنا واشتريت ابن الغاوي، ولولا الحياء لجعلته وليّاً من أولياء الله.

الشّيخ عباس : لا تغلط يا ابن القاسم، ولا تقابل مسعاي بالجحود. إنّ الحرص على سمعتك أثقل في ميزاني، من الرّغبة في خدمة الآخر، وأنت تعلم كم هي قديمة وراسخة منزلة عائلتك عندي، ومن ليس له قديم ليس له جديد. لكنّي خشيت أن يؤذيك عنادك، وأن يتغامز النّاس ويقولوا.. هذا من عرقل المشروع، وحرمنا خيره.. وبالمقابل، يقضي الحقّ أن أعترف أنّ الرّجل لم يظهر مايشينه حتّى الآن.. وهو يحمل لك ودّاً واحتراماً، ويتعشّم أن تتعاونا في محاربة مظاهر التأخّر، وبناء ما يحقّق التمدّن والتقدّم، البارحة مثلاً سألني باستنكار.. لماذا لا يوجد في القرية جامع؟

المختار : وسألني أيضاً.. لماذا لايوجد مستوصف؟!

الشّيخ عبّاس : وهو يرى أنّ خلوّ الضيعة من الجامع، يعادل الكفر أو الفضيحة. وتمنّى أن تتعاونا معاً لبناء هذا الجامع. وأمام الحاضرين تعهّد أن يدفع كلّ نفقات البناء.

محمّد : **(وهو يتميّز غيظاً)** وأنا.. ماذا ينبغي أن أدفع؟

الشّيخ عبّاس : لاشيء.. إحدى أراضيك المهملة في القرية.

محمّد : وغداً أرضٌ للمستوصف.. وبعده أرض للمدرسة، قولوا.. أتريدون تجريدي ممّا أملك؟

الشّيخ عبّاس : لا يا ابن القاسم.. اكتم هذه الأقوال. لا أريد أن يذاع أنّك عرقلت بناء الجامع، واستكثرت على الله قطعة أرض صغيرة. والله لو كان أبوك حيّاً لقدّم الأرض، وفوقها ما تيسّر من المال.

محمّد : أتريد أن أتبرّع بأرضٍ لبناء الجامع يا شيخ؟

الشّيخ عبّاس : الحسنة والذكر الطيّب كلاهما لكَ يا ابن القاسم.

محمّد : طيّب.. لكم ما تريدون، أخبر عبّود الغاوي أنّ الأرض جاهزة.

الشّيخ عبّاس : بارك الله فيك.. بارك الله أهلك.. بارك الله رزقك.. وتذكّر أنّ الخَير عند الله كحبّة قمح أنبتت سبع سنابل، في كلّ سنبلة مئة حبّة. **(ينهض ومعه المختار)** حقّاً.. هذا بيت مبارك، لايخرج المرء منه وفي نفسه حاجة. **(وهما يخرجان)** بارك الله فيك، وكثّر من أمثالك.

محمّد : **(يمسح وجهه بكفّيه.. بعد قليل)** لا إله إلاّ الله وأستغفر الله العظيم. يا ربّ اغفر لي جهالتي وضيق صدري. الأرض هبة أقدّمها بنيّة صافية ونفسي قانتة، ولكنّي متطيّر وخائف ممّا يجري، احمنا من الأشرار واغفر لنا الغضب والجهالة.

(يفتح كفيه ويبدأ بقراءة الفاتحة.. فيما تتلاشى الإضاءة).

مشهد ٦

(ركن نصف معتم تتراقص فيه ألسنة من ظلالٍ داكنة الزرقة، يبدو عبّود الغاوي وخادمه الأحدب مثل شبحين. وثمّة تغيير طارئ وغريب قد ألمّ بهما، ولاسيّما الخادم).

الخادم : حين سمعتك تتحدّث مع الشّيخ عبّاس، تذكّرت تلك اللّيلة الثّلجيّة، التي كنت تسهر فيها على جثمان أخيك.

عبّود : ومن أعماق روحي كنت أناديك.

الخادم : لبّيت النّداء. وعقدنا ميثاقاً ممهوراً بالدم. أليس بيننا ميثاق؟

عبّود : نعم.. بيننا ميثاق، لم أشعر يوماً بالخوف أو النّدم على توقيعه.

الخادم : وهذا ما يجعلني أتفانى في خدمتك. وفّرت لك ما تحتاجه من الثّراء والقوّة.

عبّود : وبالمقابل أهديتك روحي اللّطيفة.

الخادم : هديّة ثمينة أخشى أن تنزلق من بين يدي في لحظة غفلة.

عبّود : دع التلميح، وأفصح. ما الذي يضايقك؟

الخادم : لا أعلم أنّ خطّتنا تتضمّن بناء الجوامع.

عبّود : آ.. الجامع! معك حقّ. هذا إلهام جاءني هنا. ولكن ليس هناك ما تخشاه.

الخادم : هل تسخر منّي؟ تريد أن تبني جامعاً، وتقول لي ليس هناك ما تخشاه!

عبّود : أتظن أنّه سيكون مكاناً للتقوى، ومعاكسة مشاريعنا!

الخادم : وماذا يكون إذاً؟

عبود : هذا السؤال لا يليق بخبرتك ونباهتك. ألا تلاحظ ما يحدث حولنا؟ لن يدخل الجامع إلاّ رجال يبتغون الدّنيا لا الآخرة. تقواهم رياء، وصلاتهم زلفى. رجال أفسدت إيمانهم الأطماع والشّهوات، ولا يذكرون الله إلاّ لمنفعة من ثروة أو سلطة.. وبعد بضع سنوات أو أقلّ، سيكون هذا الجامع حاضنة تفرّخ القتل والتعصّب والظلام. نعم.. في هذا الجامع سيكون للشيطان نصيب أوفى من نصيب الله.

الخادم : أكنت تدرك هذه الحقائق كلّها، حين اقترحت بناء الجامع؟

عبود : وكنت أدرك أيضاً أنّ اقتراحي سيضاعف مصداقيتنا، وأنّ بناءه سيوفّر لنا موقعاً مهمّاً لإدارة العمال وضمان نجاحها.

الخادم : لست نادماً لأنّي اصطفيتك، ولبيّت نداءك. قل لي.. هل تشعر أنّك تتحسّن؟

عبود : لا أدري بعد.. على كلٍّ، إنّي أتسلى. هذه أوّل مرّة أخالط فيها النّاس، وأبادلها الأحاديث والنظرات.

الخادم : يسعدني أنّك تتسلّى. ولكن مخالطة النّاس لاتخلو من الخطر.

عبود : وما هو هذا الخطر؟

الخادم : أن تنزلق تحت وطأة النظرات والأحاديث إلى التعاطف.

عبود : لا تخف، ما يجذبني، ويسليني هو الطّرافة لا أكثر.

الخادم : إذن. تسلَّ.. كما تشاء، وأعدك أن تكون التسلية الكبرى من إعدادي وتحضيري. **(يخرج مرآة يمسحها، ويهزّها بطريقة معيّنة، حتّى تصفو، وتتجلّى فيها صورة رباب)**. تأمّل هذا الوجه، الذي يتفجّر سحراً وجمالاً.

عبود : **(تبرق عيناه)** حقّاً! إنها آية ساحرة.

الخادم : هل أعجبتك؟

عبود : **(وهو يجاهد كي ينتزع عينيه من المرآة)** لا.. لم نأت كي نبحث عن اللّذّات، بل كي نتجدّد.

الخادم : ليكن.. حين تجدّد دماءك، ستكون تسليتي في انتظارك.

عبود : بدّد هذه الظلال. وأخرجني إلى الضوء.

(تراقص الظلال والأضواء الشاحبة ثمّ تنطفئ الإضاءة).

مشهد ٧

(بيت ريفي، أمين التبّان وأخوه مروان التبّان، ومعهما أمّهما العجوز مريم الزرقاء).

مروان : أحسُّ أنّك لاتصغي إليَّ!

أمين : يا حبيبي.. يا مروان إنّي أصغي إليك. أبعدنا المرأة والولد كيلا يقاطعناأحد.

مروان : لماذا لا تقولين شيئاً يا أمّي؟

الزّرقاء : أفضّل أن أسمع.

مروان : أنتم أهلي، ولا يجوز أن أخفي عنكم أنّي في ضيق. إنّي بحاجة ماسّة إلى مبلغ أرتّب أموري به.

أمين : إذا أنت شكوت، لا يبقى لمثلي ما يقوله. موظّف كبير ويقبض في الشّهر المبلغ المرقوم، ومع هذا يأتي بعد طول غياب ليخبرنا أنّه في ضيق، وأنّ حاجته إلى المال ماسّة. أكنت تعلمين يا أمّاه أنّ أخي يعيش في فاقة، وأنّ حاجته إلى المال ماسّة؟

مروان : أتحسب أنّي أبالغ! فعلاً أنا موظّف ولديّ معاش، ولكن هل تعلم يا أخي.. ماذا تعني الحياة في العاصمة؟ هل تعلم الشّقاء الّذي ينبغي أن تتحمّله كي تحصل على بيت، ثمّ كي تفرش البيت، ثمّ كي تكون لك حياة تتلاءم مع مركزك ووظيفتك. لديّ راتب.. نعم يا أخي، لديّ راتب.. ولكي لديّ أيضاً

التزاماتٌ ثقيلة، لا يغطّي الرّاتب إلاّ جزءاً يسيراً منها، أتعرف حجم القروض والدّيون التي ينوء تحتها ظهر أخيك؟ صدّقني لولا إلحاح الحاجة لما خطر هذا الموضوع في ذهني. وحتّى لو لم يكن المرء محتاجاً، فإنّ السّعر الّذي يدفعه ابن الغاوي، يعدّ فرصة ذهبيّة لايفوّتها إلاّ المجنون.

أمين : أتسمعين يا أمّي! أخي المتعلّم يقول.. سنكون مجانين إذا لم نبع أرضنا.

مروان : أتتخيّل المبلغ الذي سنحصل عليه؟ سيكون بوسع كلّ منّا أن يسوّي وضعه، وأن يبدأ مع الحياة بداية جديدة.

أمين : أنت يا أخي عندك وظيفة وبيت في المدينة، وأخمّن أنّ الضيعة التي ولدت وتربّيت فيها، لم تعد تعني لك شيئاً. أما أنا فهنا مكاني، والأرض هي عملي الذي أفنيت عمري فيه. أتتصوّر كيف تكون حياة مزارع لم تعد لديه أرض؟ ماذا سأفعل، وكيف نعيش؟

مروان : في أيّامنا هذه، لم تبق للأرض قيمة إلاّ في الأشعار والأغاني. قُل لي ماذا تدرّ هذه الأرض، التي تكدح وتشقى فيها طوال السّنة. إنّ بسطةً صغيرة على رصيف شارع، يمكن أن تدرّ أضعاف ما يكسبه المزارع من محصوله. لقد تغيّرت الدنيا يا أمين، وبالمال الذي ستحصل عليه، يمكن أن تهيّئ مشروعاً ربحه أكبر وتعبه أقلّ.

أمين : سأقدّم لك يا أخي نصيحة لوجه الله. إيّاك أن تزدري الأرض أمام فلاّح أعطاها أفضل قواه، وأعطته أفضل خيراتها. هذه الأرض ألّتي لا تعني بالنّسبة لك إلاّ مبلغاً من المال، هي بالنّسبة لي رفيقة وعشيرة ورزق وحياة تتواصل في الأبناء بعد الممات. ولا تنسَ يا أخي المتعلّم أنّ هذه الأرض هي التي

ربّتك، وأنفقت عليك حتّى تعلّمت، وتوظّفت، وأدرت ظهرك لنا.

مروان : أنا لا أنكر الفضل.. فضلك وفضل هذه الأرض التي آثرتَ أن تتفرغ لزراعتها.

أمين : آثرت! ولماذا آثرت أن تكون الزّراعة نصيبي؟ ألاّ تذكر أنّه كان ينبغي أن يضحّي واحد منّا كي يتعلّم الآخر؟

الزّرقاء : **(وكأنّها تحدّث نفسها)** بعد وفاة أبيهما، جاء أمين وقال لي: «أخي مروان صغير، وتبدو عليه علائم الذّكاء والنّجابة. لهذا قرّرت أن أحلّ محلّ أبي في زراعة الأرض، وأن نوفّر لأخي كلّ ما يحتاجه، كي يتعلّم، وينال أعلى الشّهادات». قلت له: «وأنت يا أمين». فأجاب: «سأترك المدرسة، وحين ينهي أخي تعليمه، سيعوّضنا جميعاً عن الحرمان وشقاء السّنين». وكنّا نعضّ على الأرض بأسناننا، وكنّا نقسو عليها، ونجبرها أن تعطي أفضل غلاّتها، وكنّا لا نستبقي من الموسم إلاّ ما يسدّ الرّمق، وكان مروان يأخذ، ويمنّينا بالوعود.

أمين : وفي الصيّف كان يأتي كالدّيك المنفوش، ينام حتّى الضحّى، ويمضي الوقت في اللّهو والعبث مع البنات من جيراننا وأقربائنا. وفي ذلك الصيف.. **(يغص بالبكاء)**.

الزّرقاء : نعم.. وفي ذلك الصيّف أفسد إحدى قريباته، ثمّ سافر لامبالياً، ودون أن يخبر أحداً. جاءتني البنت، وخبأت سرّها عندي. سافر أمين إلى المدينة، وسأله أن يصونها ويتزوّجها، فرفض وقال: «هذه ليست من مقامه» وعاد أمين غاضباً وخائباً، وقال لي: «عبثاً شقينا، غربة وجحود». وتحمّل أمين غلطة أخيه، وتزوّج البنت التي أفسدها مروان.

أمين : هي قريبتي، سترتها وسترتني. أمّا أخي فأنهى تعليمه، وحصل

على وظيفة معتبرة، وتزوّج فتاة لم نرها، وكافأنا على سنين الشّقاء بالنّسيان والجفاء.

الزّرقاء : لم يذكر أمّه بمنديل، ولم يذكر أخاه بسترة أو قميص.

مروان : هل تدرّبتما طويلاً على هذه المحاكمة؟ اسمع يا أمين.. لم أتحمّل مشقّة السّفر، وأجيء إلى هذه الخرابة، كي ننبش الماضي، ونجرد الحسابات.

أمين : نحن لا نستطيع أن نترك الماضي، لأنّنا ما زلنا نعيش فيه، ومازالت توجعنا جروحه وآثاره.

مروان : (بعنف) هذا الماضي نسيته. ولي حقّ ما جئت إلاّ كي أحصّله.

أمين : وما هو هذا الحقّ؟

مروان : إنّه بيّنٌ. أم تريد أن تنكر؟ اسمع يا أخي، مازلت أودّ أن يتمّ كلّ شيء بالرّضا. أنت تعلم أنّ لي نصف الأرض. وإذا طاوعتني وبعنا معاً، فسنوفّر على أنفسنا متاعب القسمة والدوران في المكاتب العقاريّة.

أمين : سأقولها لك صراحة، وأتمنّى أن تفهمها بالرّضا.. هذه الأرض لن تباع إلاّ على جثّتي.

مروان : طيّب أنت حرّ، ويمكنك أن ترفض بيع حصّتك، أمّا حصّتي. فلا شأن لك بها، ويمكنني أن أبيعها كما يحلو لي.

أمين : لن تبيع شيئاً.

مروان : أتنكر أنّ لي نصف الأرض؟

أمين : قبل أن تتذكّر مالك. حاول أن تتذكّر ما عليك. منذ عشرين سنة، وأنا أعمل كأجير، وأعطيك معظم ما تغلّه الأرض. دون أن أسأل عن حصّتك أو حصّتي. والآن بعد أن قطفت ثمرة كدّي وشقائي، تأتي لتطالب بحصّتك من الأرض. ألا يحقّ لنا بعد أن توظّفت، وصارت لك مكانة ورواتب، أن

نستغلّ هذه الأرض كي نأكل حتّى نشبع، ونوفّي ما بقي من ديون، كنت أدورها خلال سنوات تعليمك! لم تكن الأخ الذي عقدت عليه الآمال، ولكن لا أحمل لك، في قلبي أي ضغينة. الأرض لن تباع ما دمت حيّاً. والأستر لنا جميعاً أن تعود من حيث جئت.

مروان : ما هذا.. أتجرّدني من حصّتي؟!

أمين : عندما نستردّ بعضاً من ديوننا، أو حين تأمر أمّنا بالقسمة، يمكن أن تأتي وتأخذ حصّتك.

مروان : تدخّلي يا أمّي، وحلّي هذا الخلاف، قبل أن يكبر ويتعقّد.

الزّرقاء : ويلاه.. إنّي أبصر أكثر ممّا أسمع!.

مروان : ما هذا.. أطلب حصّتي فتولولين في وجهي! أنا مصمّم على البيع. اليوم سأتّفق مع الرّجل، وغداً سأطلب من محامٍ أن يقوم بإجراءات القسمة. أين السّند؟ أما زلت تخبّئينه في الصّندوق. **(ويتّجه نحو الصّندوق، فيمسكه أمين)**.

أمين : **(بحزم)** لايوجد سند، ولن يكون هناك بيع.

مروان : هذه سرقة. إنّك تسرقني. ليسمع النّاس كلّهم، إنّ أخي الكبير يسرقني.

أمين : **(يصفعه فاقداً أعصابه)** وتتحدّث عن السّرقة.. أيّها النّذل.. أيّها الدّودة الحقيرة **(وهو يهزه بعنف)** كالعلقة مصصت دماءنا وعرقنا، ورقاد ليالينا، ثمّ تأتي، وتتّهمنا بالسّرقة؟

مروان : آأنت تمدّ يدك عليّ، وتجرؤ على ضربي! أنت الجلف.. البليد.. الذي يلمّ فضلاتي. أمّاه.. هاتي السّند قبل أن تكبر بيني وبينه.

أمين : **(وهو يدور في البيت كالمجنون)** أهذا جزاء العمر الذي ضيّعته من أجلك؟! أمّي هل تسمعين.. أهذا هو جزائي إذن.. **(يتناول من الزاوية عصا غليظة)** لا.. ينبغي أن تكبر.

الزرقاء : ويلاه.. إنّي أبصر أكثر ممّا أسمع.

مروان : **(يخرج مسدّساً من حزامه)** إيّاك أن تقترب.. وأنت.. انهضي وهاتي السّند..

أمين : أتحمل مسدّساً؟ وهل تظنّ أنّ هذه اللّعبة ستجعل منك رجلاً؟! خُذ إذاً..

(يهجم أمين رافعاً العصا على مروان، يتراجع مروان برعب، ثمّ تدوي طلقات متلاحقة، ويخرّ أمين على الأرض مضرّجاً بدمه).

مروان : **(مذعوراً)** قتلته.. لم أكن أنوي.. استفزّني.. ألم يستفزّني؟ **(يغدو صوته كالخوار)** قتلته.. قتلت أخي.. أميّ لم أكن أنوي.. **(يقترب منها، ويميل عليها كي يحضنها، فتدفعه بطرف عصاها)** أمّي.. صدقيني.

الزّرقاء : ويلاه.. عدت أبصر. إنّي أبصر.

مروان : **(وهو يدور زائغ العينين)** جنون.. لم أكن أنوي.. جنون.. يجب أن أمضي.. إلى أين.. لايهم.. يجب أن أمضي..
(يخرج من البيت)

الزّرقاء : ويلاه.. إنّي أبصر.. ويلاه.. ممّا أبصر..
(تنهض بهدوء وترتمي على ابنها القتيل تصوّت وتبدأ بالنّواح.. وببطء شديد تتلاشى الإضاءة).

الفصل الثالث

القرية هشة.. وعاصفة «الجليد»

منوخشة. تحولات.. وتحولات..

مشهد ١

(في هذا الجزء تتوالى المشاهد السريعة. ومن المهمّ أن يتكوّن انطباع بأن الزمن يتدافع كالبروق الوامضة، وأن الأمكنة هلام رخو يتأرجح بين التشكل والزوال. وعلى أرض المسرح تتبعثر نفايات حديثة «أكياس نايلون، علب صفيح، علب كرتونية.. إلخ» وتزداد مع تقدّم المشاهد. الأشخاص يتحركون بسرعة، وكان أمراً عاجلاً يحثّ خطاهم. حتى الأداء ينبغي أن يبدو أحياناً وكأن به نوعاً من اللهاث. المختار أمام بيته الحجري).

المختار : (يصبّ كأساً من الشاي، يضع ملعقة سكّر ويحرّكها) بعد مقتل أمين التبان، والجنازة المهيبة التي هيّأناها له، خيّم على القرية ذهول ورهبة. في تلك الأيام.. يا الله.. كم تبدو تلك الأيام بعيدة! وكم يبدو الزمن سريعاً لايكاد المرء يدركه! في تلك الأيام.. سامحني يا رب إن أضلّني الهوى. أعترف أن حزني شابهُ عِرْقٌ من الراحة، وقدّرت أن المشروع سيتوقّف، وأنّا سنخرج من الذهول إلى أُلفة أيامنا القديمة. ولكن ما كدنا نفرغ من السبوع حتى انتفضت القرية، كأنّها تنهض من رقادٍ سقيم، ثم انهمكت في التبدّل والتحوّل. أحياناً أدوخ حين أتأمّل، كيف تغيّر كل شيء في هذه الومضة القصيرة من الزمن. مايحدث لم نعرفه من قبل، ولايشرحه ما نعرف من سوالف الأجداد وحكمتهم! فجأة أقيم في القرية

مخزنٌ فيه من متاع الدنيا وبضاعتها ما يسلب الرشد ويوقظ في النفس من الجوع والعطش ما لا يمكن إشباعه.. ومن كان يتردّد في بيع أرضه أصبح يتوسّط كي يشتروها منه، وأمام أعيننا المدوّرة بالدهشة، نهض المجمّع السياحيّ وكأنه معجزة. قال البعض إن الله سخّر له الجنّ، كي يبني هذا المجمّع في مثل هذه المدّة القليلة، وقال البعض الآخر إن الورشات والأجهزة الحديثة، التي استخدمت في البناء هي التي حقّقت المعجزة. الناس تترقّب الافتتاح، والزمن يمرّ كالومض ورجلٌ مثلي..

(يدخل أديب بخطىً دينامية. يرتدي ثياباً تماشي الموضة، وبيده حمّالة مفاتيح ثمينة).

أديب : أما زلت تندهش مما يجري! حلّفتك بالله ماذا كنت تقول؟

المختار : كنت أقول، يا عين عمّك، ورجل مثلي.. لايفارقه الإحساس بأنه يقف على حجر مقلقل.

أديب : لا يا مختار. لا أعتب على العجائز والجهلة إذا توجسّوا من التقدّم. أما أنت فإن توجّسك يحيّرني فعلاً.

المختار : هل أنت متأكّد يا أديب أننا نتقدّم؟

أديب : وهل يحتاج هذا السؤال إلى جواب؟ إن التغيير الذي طرأ على حياتنا واضح كالشمس. منذ سنة أو أقلّ كانت الضيعة خاملة، فقيرة، كانت تتكرّر أيامها البليدة، وتحبط حماسة شبابها الطموحة، أما اليوم فقد غدت هذه القرية ذاتها كخليّة النحل، تعمرها الحيويّة، والرغبة في التطوّر. انظر إلى الناس.. صاروا أجمل. صاروا يأكلون ويشبعون. صاروا نشيطين، وفي عيونهم يتوقّد الأمل والطموح.

المختار : أما أنا فأحسّ أن الناس أصابها دوار، وأنها تجري متحيّرة وذاهلة في درب مجهول، لا تعرف إلى أي مطاف سينتهي

بها.

أديب : ماتقوله لا يخلو من دقّة ملاحظة، جاءنا التغيير مباغتاً وسريعاً. ومن الطبيعيّ أن يحتاج الناس إلى وقتٍ حتّى يألفوه، ويتأقلموا مع الجديد الذي يحمله. نعم سيوجد من يحار، أو يشكّ، ولكن عاجلاً أو آجلاً سيتأكّد الجميع أن الدرب الذي سلكناه أخيراً، هو درب التقدّم والإزدهار.

المختار : أرجو أن يكون ما تقوله صحيحاً. وعلى كلٍ، أنت ابن هذا التحوّل الذي يحدث، ومن الطبيعيّ أن تتحمّس له.

أديب : لا أتحمّس لنفسي فقط، بل أتحمّس للضيعة وأهلها أيضاً. قل لي يا مختار على ما تعرف من أبيك وجدّك، هل توفّرت لهذه الضيعة على مدّ تاريخها فرصٌ للثراء، كما تتوفّر هذه الأيام؟

المختار : **(كأنه يداعبه)** لاسيما إذا كان شاطراً مثلك، يلقفها وهي مشتعلة.

أديب : ولِمَ لا يا مختار! ألا تحتاج الثروة دائماً إلى الشطارة، واقتناص الفرصة!

المختار : لا تظنّ أني ألومك، إن نجاحك يسعدني.. وأدعو الله أن يزيدك مالاً ونجاحاً. جرّنا الحديث، وأنسانا واجب الضيافة. **(يصب له كأساً من الشاي)** تفضّل.

أديب : شكراً يا مختار. في الواقع جئت أطلب معروفاً، وأرجو ألاّ تردّني خائباً.

المختار : إذا كان بمقدوري، فأنا جاهز.

أديب : عزمت أن أطلب يد سميرة ابنة محمّد القاسم هذه الليلة، وأتمنّى أن ترافقني وتسعفني بكلمة لديه. لا سيما وأن أبي لن يكون معنا.

المختار : ألن يرافقك أبوك؟

أديب : إنه يتهيّب زيارتهم، ويرى أن نسبنا لايسمح بالتطلّع إلى مصاهرته.

المختار : لا ألوم أباك. إن محمّد القاسم معتدٌّ بنسبه، وعنيد.

أديب : أرجوك لا تخذلني، حين رفض أبي، لم يخطر لي أبٌ سواك.

(يدخل بسّام لاهثاً وممتقع الوجه)

بسّام : إلحق يا مختار!

المختار : ماذا هناك؟

بسّام : إن ضرغام أقفل الباب عليه وعلى امرأته. ولا نعرف ماذا يمكن أن يفعل بها.

المختار : وماذا سيفعل بها؟ أفهمني ماذا يجري؟!

بسّام : منذ الصباح وهما يتشاتمان، ويتعاركان من أجل شراء غسّالة. هي تطلب حقّها من ثمن الأرض، وتريد شراء غسّالة، وهو يشتمها ويرفض. وفي النهاية جنّ جنونه، فأقفل الباب عليهما، ولانعرف ماذا يمكن أن يحدث. هناك من رآه يحمل سكيناً قبل أن يقفل الباب.

المختار : وهذه قصّة أخرى. لعن الله الغسّالات، ومن أدخلها إلى هذه الضيعة. هيّا بنا..

أديب : سنذهب بالسيّارة، تعالاً معي.

بسّام : (بازدراء) دعنا من السيّارة.. المشي أسرع.

(يخرجون.. وتتلاشى الإضاءة..)

مشهد ٢

(خلف جدار من بيت يُهدم. فضّة وعبد الرحمن).

فضّة : (وهي تبعده بأطراف أصابعها) هل اشتقت إليّ؟

عبد الرحمن : لن أستحي يا فضّة. أعترف لكِ إن هجرك ذبحني. لم أكن أتصوّر أنكِ متغلغلة في كياني إلى هذا الحد. أحياناً أشعر أن جسدي كلّه أفواهٌ تناديك. أحتاج كالمدمن الحرمان أن أذوقك، أن أشمّك، أن ألمسك، أن.. (ويعانقها).

فضّة : (وهي تدفعه وتتملّص منه) ومع هذا وجدت أن السفر في حالتنا حماقة كبيرة!

عبد الرحمن : معك حق.. كنت مرتبكاً، ولم أعرف كيف أشرح لك الصعوبات. يومها لم أكن أقصد رفض الفكرة تماماً، بل حاولت أن أشرح..

فضّة : أرجوك لا أحتاج تلك الشروح. إني أفهمك، وليس في نيّتي أن أفتح باباً للجدل والعتاب.

عبد الرحمن : لو فهمتِ موقفي فعلاً، لما قرّرت هجري.

فضّة : لم أقرّر هجرك، لأنك رفضت السفر. كنت أعرف أن السفر حلمٌ يتجاوز طاقتك وخيالك.. وربما يتجاوز طاقتي أنا أيضاً.

عبد الرحمن : إذن.. لماذا قرّرت هجري؟

فضّة : لأنه ليس لديك ما يكفي حاجتي.. لا.. إذا أردت الإنصاف، ينبغي أن اقول مايكفي شراهتي..

عبد الرحمن : إني لا أفهم.. هل كانت علاقتنا سيئة؟! أما كنت ترتوين؟

فضّة : (بحدّة) لعلي لم أقصد هذا الجانب... بل أقصد هذا الجانب وجوانب أخرى كثيرة. ذلك اليوم حين أصابني الجنون تحت التينة. وطلبت منك أن نسافر. كان عمري كلّه يتجمع أمامي. السنوات كثيرة والمحصّلة هزيلة. صرّة صغيرة ليس فيها إلا أشياء قليلة. كان اليأس يخنقني. كنت قوّية، كنت جميلة. كنتُ أستحقّ حياة أخرى.. لا أدري كيف أشرح لكَ.. حين ناديتني أول مرّة، كنت كالرجاء بالنسبة لي. حلمت كثيراً، وخاطرت بكل شيء، كي أتبع نداءك ونداء أحلامي، لكن.. يوماً بعد يوم شهراً بعد شهر، كنتُ أحسّ بغموض أنّ مالديك لا يكفي أحلامي.

عبد الرحمن : (غاضباً) أتحاولين إهانتي؟

فضّة : لا.. لم أقصد إهانتك. ما أردت أن أشرحه لكَ، هو بؤسي الداخلي. حين تأمّلت موكب عبّود الغاوي، وهو يدخل القريّة. حين خطف بصري بريق السيّارات وعظمتها، شعرت انقباضاً في مَعِدَتي. اكتشفت في داخلي بئراً لا قرار لها، تفور فيها الرغبات والأطماع والأماني. أتعلم؟ حين دخلت إلى المخزن الجديد، وأذهلني تنوّع البضائع ووفرتها أصابتني بُرداء وحمّى. لازمت الفراش أياماً وكنت أهذي. قيل لي إني تحدّثت عن العالم الواسع، الذي يأتي إلينا، وعن الأشياء الجميلة التي تعبث بنا، وعن البقرة التي رأيتها تغرق في الطين حين كنت صغيرة. أتفهمني قليلاً يا عبد الرحمن؟ في داخلي بئر من الحرمان.

عبد الرحمن : لاشكّ أنك قاسيت كثيراً في حياتك، ولكن يمكنك أن تعتمدي عليّ. اسمعي.. سأشتري سيارة، وسيكون لديك

كل ماتحتاجين إليه.

فضّة : إنك لاتفهمني يا عبد الرحمن. ليس لديك مايكفي حاجتي، أتعلم لماذا؟ لأني أريد كلّ شيء، السيّارات والملابس والأجهزة والبريق والصور الملوّنة والجمال والفتنة واللّذّة. **(تنخرط في البكاء)** كلّ شيء.. كلّ شيء..

عبد الرحمن : ومن يستطيع أن يحصل على كلّ شيء!

فضّة : نعم.. أعرف.. ليس هناك أمل.

عبد الرحمن : سأقدّم لك ما أستطيعه، وسنعرف لذّاتٍ لم نجرّبها من قبل.

فضّة : من يعرف أبعاد شراهته، لا يبقى لديه إلا أن يغذّي مرارته، ويتعايش مع يأسه.

عبد الرحمن : إني أحبّك وأشتهيك يا فضّة.

فضّة : أما أنا فلا أستطيع بعد اليوم، أن أحبّ، أو أشتهي إلا رجلاً لديه ما يملأ هذه البئر المحفورة في أعماقي.

عبد الرحمن : لم أكن أعرف أنك شرهة إلى هذا الحدّ!

فضّة : وأنا أيضاً.. لم أكن أعرف.. كان يجب أن يأتي إلينا العالم البعيد، وفتنة عبّود الغاوي، كي أكتشف أبعاد شراهتي.

عبد الرحمن : **(يُخرج علبة أنيقة من جيبه)** حملتُ لكِ هدية صغيرة، وإذا غيّرتِ رأيك..

فضّة : لن أغيّر رأيي.. وزوجتك أحقّ بالهديّة مني.

عبد الرحمن : اشتريت زجاجة العطر علي اسمك.

فضّة : إذن.. باسمي واسمك عطر بها زوجتك.

عبد الرحمن : كم تغيّرت يا فضّة!؟

فضّة : وما الذي لم يتغيّر، منذ هبّت هذه العاصفة علينا؟ سأتركك الآن.

(تتلاشى الإضاءة).

مشهد ٢

(قسم الملابس في المخزن الجديد، المخزن حديث جداً، وأنيق بديكوراته وترتيب البضائع فيه. يبدو التباين شديد الوضوح بين المخزن وبين القرية رغم التجديدات التي تطرأ عليه. فالمخزن يكاد يكون بحدّ ذاته فرجة تستقطب الكثيرين للوقوف أمام واجهاته، والحملقة بمعروضاته. يوسف العلوني وفاطمة. يتنحي بها ركناً بعيداً عن بعض الزبائن المبعثرين في المحل. هناك طاولة تعرض عليها الثياب، وغرف خلفية للقياس. موسيقا ناعمة وخافتة).

يوسف : أشتهي أن أراك تبتسمين!

فاطمة : أبتسم حين يوجد ما يدعو للابتسام.

يوسف : رأيت الشاب علاء السمان يخرج غاضباً، وهو يكزّ على أسنانه.

فاطمة : ليغضب، وليأخذه عزرائيل.

يوسف : كم مرّةً ينبغي أن أكرّر هذا الدرس! إن عملنا يا فاطمة يحتاج إلى لطف ومسايرة.

فاطمة : إني أحاول يا يوسف، ولكن لا أتحمّل قلّة الأدب، أنت نفسك.. هل تقبل أن يتجاوز الزبون حدود الأدب مع امرأتك؟

يوسف : بالكياسة والمرونة، يمكن أن يتجاوز المرء قلّة الأدب.

فاطمة : أيّة كياسة وأيّة مرونة! أصبحت أتحيّر معك يا يوسف. أتعرف ماذا فعل ابن السمان؟

يوسف : وماذا فعل؟؟

فاطمة : لاشيء.. أستحي أن أقول. كان السيد علاء يجرّب بنطالاً. يدور أمام المرآة، ويجرجر في الكلام.. كم تساوي القبلة من هاتين الشفتين، وكم تساوي اللمسة من هذين النهدين.. ثم مدّ يده، قُل لي هل كان ينبغي أن أبتسم له؟

يوسف : أعترف أن هناك زبائن يتجاوزون حدودهم، ويتّصفون بالوقاحة. وفي عملنا ينبغي أن يتعلّم المرء كيف يكون واسع الصدر، ليّن العريكة. لاشكّ أن هذا الزبون تجاوز حدّه، ولكن بشكل عام نادراً ما أراك تبتسمين. وجهك فتّان إذا انفرجت أساريره. وأنا أعلم أن لديك من الفطنة، وسعة الحيلة ما يجعلك تواجهين أصعب المواقف دون خشونة. (**هامساً**) إن الله فتح لنا منجماً من الذهب يا فاطمة. ولا يستحقّ نعمة الله من لا يعرف كيف يقدّرها، ويحافظ عليها.

فاطمة : إنك محقّ.. نعم إنه منجم من الذهب.. ولكن يخطر لي أحياناً أننا لم نعد سعداء كما كنّا أيام الدكان القديم.

يوسف : السعادة! انتظري قليلاً، وسترين ألواناً من السعادة لاتخطر على بال. إني أرى الأيام الضاحكة تقبل علينا، وتغمرنا بالفرح والنشوة.

(ضوضاء تقترب من المخزن، بعد لحظات تظهر زهيّة وكريمة ومعهما الخادم، ووراءهم حشد من الفضوليين، معظمهم من الشباب. وخلال المشهد، سيزداد الحشد وينضمّ إليه رجال موقّرون مثل محمّد القاسم والشيخ عبّاس وسواهم)

الخادم : (**صائحاً**) أرونا ماذا يستورد لنا عبّود الغاوي! هو معلّمي

(**يخفض صوته**) ولكنه أحياناً يحب التشدّق والمبالغة. أين بضاعة باريس وروما؟ أخرجوا مايليق بأجمل قامتين في هذه البلاد.

زهيّة : (**هامسة**) إنك تخجلنا.

الخادم : ولِمَ الخجل! ليتني أجد الفصاحة المناسبة، كي أصف الألق الذي ينبعث منكما، أو السحر الذي يحفّ بكما. هذا الجمال يحتاج إلى أزياء تبرزه، وتجعل الأعمى يكتشف وهو في ظلمته تكويناته البديعة. هاتوا مالديكم من الأزياء، لأن هاتين السيّدتين ستشعشعان ليلة الافتتاح كالأقمار أو الشموس اللطيفة.

يوسف : (**وهو ينحني ويتصاغر أمام الخادم**) حتى الآن لم أعرف ماذا أعرض عليكم؟!

الخادم : وهذا يعني أنك بليد، لا تعرف أصول مهنتك. (**يلتفت نحو فاطمة**) والسيّدة.. ألا تريد السيّدة أن تساعدنا قليلاً؟!

فاطمة : (**تتراجع فزعة**) لاتقترب مني. (**مشيرة إلى زوجها**) توجّه إليه. إنه أدرى بالأزياء مني. (**تتراجع بخطى بطيئة**).

الخادم : لاتخافي.. لاتخافي. أنت أيضاً جميلة.. وحرامٌ أن تدفني هذا الوجه الصبوح بالخوف، ووصايا الرجال الخائفين والمنافقين.

(**تختفي فاطمة**)

يوسف : لافائدة.. لن تتعلّم أصول هذه المهنة أبداً. خذلتني أكثر مما أفادتني.

زهيّة : هل أرادت أن تظهر عفّتها؟!

الخادم : (**هامساً**) من يريد العفّة، لا يدخل شريكاً مع عبّود الغاوي.

كريمة : أو لعلها أرادت أن تعبّر عن تقزّزها منّا.

الخادم : سيكون سقيم الروح والجسد من يتقزّز من سيّدتين، كلّ

منهما تفتن قلوب أشدّ الرجال زهداً وتقوى. وأنت ماذا تفعل؟ نحن ننتظر.. وأنت تتواثب حولنا متحيّراً. هاتِ ما عندك.

يوسف : حاضر، هل أبدأ بمجموعة باريس؟

الخادم : ليكن، إن الباريسيين يقدّرون الجمال، ولديهم جموح في الخيال.

(يبدأ يوسف بإخراج أزياء نسائية مختلفة).

الخادم : اسمع.. لاشك أنك جاهل. والأزياء التي تحملها لا تعرف مزاياها، ولا لمحة الجمال فيها. دع عنك. سأتولى الأمر بنفسي، ولكن أخرج لي من الأدراج الثياب الداخلية. وضعها على المنصّة مع الفساتين.

(يوسف يفتح الأدراج، ويناوله تشكيلات من الملابس الداخلية، والخادم يرتّب الملابس، ويحاول أن يوائمها مع بعضها بعض).

كريمة : أترين إلى الحشد الذي تجمّع على الباب وراء الواجهة؟

زهيّة : ألم يجعل منا فرجة الضيعة!

كريمة : انظري من جاء. الشّيخ عبّاس بذاته. إنك تجذبينه كحدوة المغناطيس.

زهيّة : أود أن أراه يربط وسطه بعمامته. ما رأيك؟

كريمة : سيكون أمامنا كثير من المرح، لكن ماذا يحضّر لنا هذا الشقيّ؟

زهيّة : عرض أزياء.

كريمة : أو تظنّين! وأهلنا!

زهيّة : وهل بقيت بيننا وبين أهلنا علاقة؟

الخادم : والآن.. هل الجميلتان جاهزتان **(يناول كلاً منهما طقماً من الثياب التي تكشف أكثر ممّا تخفي)**. هذا لزهيّة، وهذا

لكريمة.

كريمة : لو أنّها ثياب داخلية، لكانت أكثر حشمة.

الخادم : وهل تبالي الموضة بالحشمة؟. سنجربّهما، ونتثنى، بهما ونراهما وجهاً وقفا. نريد أن نرتدي لباساً جامحاً. أريد أن تمتصّ الجميلتان كلّ أضواء الافتتاح، وأن يجري الحاضرون وراءهما كالضارعين في مواكب القدّيسين. **(يصفّق بيديه فيما تعلو الموسيقى التي تصاحب عروض الأزياء)** هيّا.. دعانا نبدأ.

(تدخل زهيّة وكريمة إلى غرفة تجريب الملابس، ثم تخرجان بعد قليل بالثوبين الجريئين. تمشيان بخطوات إيقاعية جيئة وذهاباً).

كريمة : **(هامسة)** انظري.. انظري.. رفع عمامته، ومسح عرقه مرّتين حتى الآن.

زهيّة : ومحمد القاسم، متى جاء؟. انظري كيف يتطاول على رؤوس أصابعه، ويحاول التخفّي وراء الشّيخ.

كريمة : **(ينفتل محمّد القاسم، وينسحب حين يلاحظ أنهما رأتاه)** لن يفيدك التاقل، ولا الابتعاد يا ابن القاسم.

(تعودان إلى غرفة التبديل، بعد قليل تخرجان بفستاني سهرة).

الخادم : ليس باهراً.. ليس باهراً. سنجرّب كل ما يوجد، نريد ملابس تصرخ، تجمح، تجرح. نريد أيّها السيّد أن نتلألأ.

يوسف : أخدمكم بعيني، سأحضر كلّ ما لديّ.

الخادم : أجل.. أحضر كل ما لديك. جرّبا هذين الردائين.

(منذ الآن.. يتّخذ تجريب الملابس شكل عرض أزياء فعلي).

أصوات من الحشد : يا بخت من قطف وذاق.

ـ أف.. جاء الحرّ قبل أوانه.

- أين كنّا وأين كانت. لا أصدق عيني.. أهذه كريمة، أم تلك زهيّة.. لا لم أرهما من قبل.
- يا حسرتي راحت عليّ.. تصوّروا ومع هذا يتفاصحون علينا، ويقولون كلّه بيض مقشّر.
- آه والله صحيح، ما الذي يجمع بين هذا البيض وتلك البيضة التي تركتها في البيت؟
- انظر! إن الحلمتين تثقبان القماش.
- الحلمتان فقط! إن الجسد كلّه كاد يمزّق القماش وينفجر.
- هل نشف ريقك مثلي؟
- نشف ريقي ودمي.
- يا الله! كدت ألمسها.
- هذه فتنة تغوي القدّيسين والأنبياء معهم.
- لم أعد أحتمل. إن بدني كلّه يتوتّر ويشهق.
- سبحان من كوّر ونحت وأبدع.
- **(تتداخل الأصوات ويبدو أن التوتّر يزداد)** لا تدفعني.
- تقدّم خطوة أو خطوتين.
- عيب يا جماعة.
- العيب على من أيقظ الفتنة.
- ساخت رجلاي.

الخادم : هذا هو.. ما ترتديانه الآن هو الجامح الذي نفتّش عنه. **(هامساً)** ارتفعت حرارة الرجال، وازداد توتّرهم. تمسّكا بي جيّداً، أيّها السيّد سجّل ما أخذناه على عبود الغاوي. **(يخرج من جيبه علبة يفتحها، فينبعث منها دخانٌ أحمر.. يختفي ومعه الفتاتان. يبدأ الحشد زحفه داخل المحل).**

أصوات : اقترب.
- امسكها ولا تخف.

- إن يدي لا تحيط برمّان صدرها.

(يزداد تدافع الناس. خوار، صياح، إنهم يقبلون الملابس، ويحضنون الطاولات. وبعضهم يحتضن يوسف العلوني ذاته معتقدين جميعاً أنهم يحتضنون المرأتين).

يوسف : ياناس.. يا هو.. ماذا جرى لكم! أنا يوسف. عيب يا أحمد.. دع صدري.. يا فاطمة.. أنجديني يا فاطمة، هاتي سطلاً من الماء وتعالي.

أصوات : **(شاب يقبّل رجل الطاولة)** ما أنعم هذه الساق!

- **(شاب آخر يدسّ رأسه في ذيل الفستان)** يا الله.. ما أنعم فخذيها!

(تأتي فاطمة ومعها سطل ماء).

يوسف : رشّي الماء عليهم.. أيقظيهم..

(ترشّ فاطمة الماء عليهم، ينتفضون، يتطلّعون حولهم بنظرات فزعة. تتحوّل شيئاً فشيئاً إلى خجلٍ وخزيٍ).

فاطمة : العمى.. ألن يبقى عاقل في هذه الضيعة. ماذا أصابكم؟ هل جننتم؟

أصوات : **(خافتة مثقلة بالخجل)** أين المرأتان؟

- ألم تكن هناك امرأتان؟

- ماذا فعلنا؟

يوسف : الأفضل ألا تعرفوا ماذا فعلتم!

- لعب الشيطان بنا.

- فعلاً.. لعب الشيطان بنا.

فاطمة : إذا كنتم رجالاً، لاتدعوه يلعب بكم مرّة أخرى.

(يبدأون بالانسحاب مثقلين بالتعب والخجل.. وتتلاشى الإضاءة).

مشهد ٤

(بيت محمّد القاسم.. محمّد القاسم، المختار، أديب الناطور، يدخل حمدان حاملاً صينية الشاي ويصبّ الشاي في الكؤوس).

المختار : هذا التمدّن جعلنا مسخرة. ما حدث في المخزن فضيحة معيبة.

محمّد : التمدّن له أهله يا مختار.

المختار : وبحتاج إلى تدريب وتدرّج.

أديب : ما زلنا في البداية، ومن الطبيعي أن تحدث مشكلات ومفارقات. لولا المختار لكان ضرغام قتل زوجته.

المختار : ولا أدري كيف أنقذناها! امرأة غشيمة وعنيدة. بقيت تصرّ على الغسّالة، حتى وهو يضع السكّين على عنقها.

محمّد : وهل أقنعتها بالتخلّي عن الغسّالة؟

المختار : لا توجد قوّة في الدنيا يمكن أن تقنعها بالتخلّي عن الغسّالة. وليس أمام ضرغام إلاّ أن يقتلها، أو يرضخ لها، ويلبّي طلبها.

محمّد : وأنت يا مختار ألم تشترِ غسّالة؟

المختار : نعم يا سيّدي.. اشتريت.

محمّد : عال.. هذا يجعل أم أحمد تتفرّغ لك.

المختار : نحن أكلتنا الأيام، وماعاد لنا غرض، سواء كانت فاضية أم مشغولة. الوقت الآن للشباب، وهذا أوانهم كي يفرحوا، ويبنوا أعشاشهم. واليوم جئناك يا ابن القاسم طالبين، فلا تردّنا خائبين.

محمّد : خيراً إن شاء الله.

المختار : لاشيء إلاّ الخير بإذنه تعالى.. هذا الشاب كلّفني أن أنوب عن أبيه، وأن أطلب ابنتك المحروسة له.

محمّد : ماذا قلت؟!

أديب : وأنا يا عم مستعدّ لكل ما تطلب من مهر ومسكن وأثاث.

المختار : وكلّنا نعرف.. أديب شابٌ ذكيّ وطموح، بنى نفسه وثروته في زمنٍ قصير، حتى غدا بين الشباب رمزاً للنجاح.

محمّد : لا يهمني ماذا بنى، وماذا جمع. ألا تدرك يا مختار من نحن ومن هم!

المختار : كرم أصلك، وشرف عائلتك، لا يُعلى عليهما يا سيد محمّد، ولكن كما ترى الزمن يتغيّر، والرجل يقاس بعمله وكسبه.. وأنا أعتقد أن نجاح أديب ومستقبله يعوّضان عن فقر عائلته، وتواضع نسبه.

أديب : ولا تنسَ يا عم، أننا جميعاً عند الله، أبناء تسعة.

محمّد : أتريد أن تعلّمنا.. نعم كل الناس أبناء تسعة. ولكن هذا لايضع الأمراء والرعاع في مقام واحد. وأنت يا مختار، ماكان الأمل فيك أن تسانده في وقاحته وتجاوز حدّه.

(ينتفض أديب ويحاول أن يتكلّم، فيشير إليه المختار بالسكوت).

المختار : لو لم أكن متأكداً أنه مقتدر، وأنه سيوفّر لابنتك حياة منعّمة، لاتختلف عن حياتها في بيتك، لما رافقته، وساندته في مسعاه.

محمّد : لو صار ماله يكال بالقنطار، لما نسي الناس أن جدّه كان راعياً لماشيتنا، وأن أباه اشتغل ناطوراً لمزارعنا.

المختار : وهذا ما يجعلني أقدّره، وأعجب به. وُلِدَ في عائلة معدومة، ومع هذا استطاع بذكائه وحده أن يكون موظّفاً في الدولة، وأن يبني ثروته في فترة قصيرة.

محمّد : فلقتني بالحديث عن هذه الثروة. اشتغل خادماً وسمساراً عند ابن الغاوي، وجمع قرشين. فهل يكفي هذا، كي يُعدَّ بين

الأغنياء والوجهاء؟!

أديب : تركنا الوجاهة لك يا عمّ، ولكن ما تعرفه عني يحتاج إلى تصحيح. ما كنت ولن أكون في يوم من الأيام خادماً عند ابن الغاوي أو سواه. إني أدير أعمالاً في مشروعات عبّود الغاوي، مستفيداً من خبرتي وعلاقاتي الرسميّة.. وعمّا قريب سأستقل وأدير أعمالي لحسابي.

محمّد : لا يهمّني ماكنت، أو ما ستكون.. كل ما لديّ هو عبارة قاطعة وصريحة.. ليس لكَ عندنا نصيب.

المختار : تمهّل يا ابن القاسم، ولا تسرع بالجواب.

محمّد : ولِمَ التمهّل! ينبغي أن تدور الأرض، أو تتوقّف الشمس في سمتها، قبل أن يوافق ابن القاسم على مصاهرة ابن الناطور.

أديب : (ينفجر مقهقهاً) أتعلم يا عم.. إن الأرض تدور فعلاً، وإن الشمس ساكنة في سمتها.

محمّد : أتهزأ بي في بيتي؟

أديب : معاذ الله.. (ينهض) هيّا يا مختار.. وأنت يا عم.. أعتقد أنّك ستندم على رفضك.

محمّد : ماذا تعني! هل تهدّدني؟

أديب : ومن أنا حتى أهدّد السيّد محمّد القاسم! لكن أعتقد أنك ضيّعت على ابنتك فرصة ستندم عليها.

محمّد : (محتقن الوجه) تيسّر يا ولدي.. تيسّر فأنا لا أحتمل التبجّح والوقاحة.

أديب : (وهو يتنحّى كي يتقدّمه المختار) هيا يا مختار فالبيت يطردنا.

محمّد : أنت تعرف يا مختار قدرك عندي.. وأرجو ألا يكون ما حدث سبباً للجفاء بيننا.

المختار : (متمتماً وهو يخرج) إن شاء الله لا يكون...

(تتلاشى الإضاءة..)

مشهد ٥

(على سطح بيت ياسين، فضّة، رباب، إنهما يتابعان افتتاح المجمّع السياحي من على سطح البيت).

رباب : أمي.. أمي.. انظري.. هذا رتل جديد من السيارات! إنها سيارات فاخرة جداً. لا شك أنها تحمل وزراء ومسؤولين كباراً. أتحزرين كم سيارة جاءت حتى الآن!

فضّة : في البداية حاولت أن أعدّها وصلت حتى ٦٧ ، ثم تهت وتوقّفت.

رباب : لاحظي كيف يدور الحرّاس، ويفتحون الأبواب الخلفيّة. لا أستطيع أن أميّز وجوههم. واحد فقط يرتدي ثياباً عسكريّة، والباقي كلّهم يرتدون ثياباً مدنيّة، ومعهم.. أترين الشعاع الذي انبعث من صدر السيّدة.. إن الأضواء تنعكس على الحلي التي تثقل صدورهنّ وسواعدهن. وماذا يلبسن، لاشك أنها ثياب غالية جدّاً.

فضّة : نعم يا ابنتي.. هناك من يلبس ويتنعّم وتتساقط عليه الفلوس، كأنها المطر، وهناك من يتفرّج على هؤلاء ويتحسّر.

رباب : أتشعرين بالحسرة يا أمي؟

فضّة : ماذا أقول يا ابنتي.. أفنيت عمري في التحسّر ولكن ذات يوم.. **(تتوقّف)**.

رباب : ذات يوم.. لماذا لاتتابعين؟!

فضّة : مالَنا وهذا والحديث الآن.. دعينا نتفرّج. هذه السيارة التي وصلت، أليست واحدة من سيّارات الغاوي؟

رباب : نعم.. أظن نعم.. واحدة من سياراته. هل ترين من ينزل منها؟

فضّة : ماشاء الله الخادم الأحدب يفتح الباب، والسيدتان زهيّة وكريمة تترجّلان من السيارة!

رباب : يبدو أنه سيعيدهما إلى ذمّته!

فضّة : لا تصدّقي هذا الكلام.. أخته قالت لي.. أخي لا ينظر إلى الوراء. وإذا رمى شيئاً لا يلتقطه أبداً.

رباب : منذ فترة وخادمه يلازمهما، وها هو يدعوهما إلى حفل الافتتاح، الذي لن يحضره أحد من الضيعة سوى أبي.

فضّة : لعلّه سيعطيهما عملاً في المشروع. أما أن يردّهما إلى عصمته فهذا مستحيل.

رباب : ترى.. ماذا يحسّ أبي الآن وحوله أهمّ رجالات البلد؟!

فضّة : نعم.. لاشكّ أنه الآن يسبح في السماء. وأنا حتى الآن لا أعرف ما الذي ألفّ وجمع بين الرجلين؟!

رباب : أنت تعلمين رقة أبي وضعفه أمام الذين يقدّرون فنّه. والرجل أطراه كثيراً، ووعده أن يسجل أغانيه على أشرطة.

فضّة : وما أدراني.. هناك ما هو غريب. كان أبوك لا يطيق سيرته، ثم أصبح لا يطيق مفارقته. **(بانخطاف مفاجئ)** يا الله.!

رباب : أترين! غدا البناء كأنه سفينة من الضوء تسبح في عتمة الليل. **(تنفجر في الجوّ أسهم نارية)**

فضّة : **(خائفة)** ما هذا؟!

رباب : **(ضاحكة وهي تربّت على كتف أمها)** لاتخافي، لا تخافي. هذه أسهم نارية.

أصوات : **(تتناهى من أسطحة متعدّدة)** سبحان الذي جعل الليل نهاراً!

ـ هذه ليلة الغاوي، وعرسه الأكبر.

ـ انظر.. إنها حزمة جديدة.

ـ هناك نجوم تتساقط.. إنها تتحول إلى خيمة.. إنها تغدو مظلّة.. يا سبحان الله! يا سبحان الله. ابن آدم جبّار.. لم يصعب عليه شيء إلا صنع الأرواح.

ـ هذه فرجة لا يراها المرء إلا في العواصم!

ـ أترين يا فضّة ألوانها، والأشكال التي تتّخذها بعد أن تنفجر؟

فضّة : شيء عجيب!

ـ هذه المرّة جاءنا ابن الغاوي بأعاجيب كثيرة.

فضّة : وكلها أعاجيبٍ تخطف الأبصار والعقول.

(تنطلق من المكبرات موسيقا إيقاعية وصاخبة).

رباب : بدأ الافتتاح العظيم. آه.. ما أجمل ذلك! السيّارات وأناقة المدعوّين وسفينة الضوء والموسيقى.. ما أجمل هذا العالم!.

فضّة : **(وهي تغصّ بالبكاء)** نعم يا ابنتي.. ما أجمل هذا العالم!.

(تنفجر في بكاء حارق تقطعه الشهقات)

رباب : **(وهي تحضن أمها)** أمي.. لماذا تبكين؟

فضّة : إنه انفعال عابر وسيمرّ.

رباب : ماذا تخفين يا أمي؟ منذ قليل كنت تتابعين الأسهم الناريّة بعجب وسرور؟!

فضّة : **(تطوّق ابنتها بدورها)** لاتشغلي بالك. تذكّرت أخويك، والبكاء يفرّج عني.

رباب : أخواي بخير.. وبكاؤك له سبب آخر.

فضّة : لاشيء.. لاشيء يا رباب. فجأة داهمتني رغبة في البكاء وبكيت.

(توقّف الموسيقى. وبعد صمت قصير تتناهى من المكّبرات

نغمات تجريبية على الربابة، وحين يستقيم اللحن يتناهى صوت ياسين يشوبه في البداية ارتعاش، ثم يجرّد الصوت بعد قليل قوياً ومتماسكاً).

رباب : **(تقفز وتصيح)** هذا أبي.. هذا أبي.

فضّة : **(وهي تمسح دموعها)** نعم إنه أبوك.

ياسين : **(يتموّج الصوت عبر المكبرات)** هالبلد نافح بالذكا ترابها

والكرم فيها نبوع وسواقي

ولضيوفها مفتّحة بوابها

وبكل بيت ضيوف بتلاقي

بوجه زوارها تزهر عشابها

والجوز بيوشوش الدراقي

رباب : **(تصفيق حار). (وهي تصفّق)** أتسمعين التصفيق! آه لو كنت معه الآن..

فضّة : **(وهي تنهض)** ومن يقبل أن تكوني معه؟!

رباب : إني أتمنى فقط.. هل تنزلين إلى البيت؟

فضّة : نعم.. أشعر بالنعاس.. إبقي أنتِ إذا شئت.

رباب : يا الله! كم تبدو مقهورة!

(صوت الربابة يصاحبه صوت أورغ خافت).

ياسين : قومي نخلي عمرنا غناني بنات

بكرا وطار العمر كلها عنعنات

(يعلو صوت الأورغ تدريجياً وكأنه يشاغب على صوت الربابة).

رغيف خبز ومجوز وشقفة حصير

وطاقة قمر بيكوخ شي راعي فقير

(يخفي صوت الأورغ أنّات الربابة بصورة متعمّدة)

وشفتي عَ شفتك هيدي الحياة

ولزّتا

(تنضم إلى الأورغ بقيّة آلات الأوركسترا الهجينة، وتنفجر موسيقى مزعجة من تلك التي تصاحب عادة الأغاني الشائعة التي تنطوي على إيقاعات راقصة).

رباب : ماذا يحدث؟ لماذا قاطعوه! لم أميّز البيت الأخير إلا بصعوبة. يا رب.. أتضرّع إليك أن تكذب خواطري، وأن تجنّبه الإهانة.

(ترفع وجهها ويديها نحو السماء.. وتتلاشى الإضاءة).

مشهد ٦

(مصطبة أمام بيت أمين التبان. على حصيرة ممدودة تجلس مريم الزرقاء مستندة إلى الحائط وإلى جوارها بسّام الراضي).

الزرقاء : أنت ابن حلال يا بسّام، حتى الأقارب لم يقفوا معنا في هذه المصيبة كما وقفت معنا.

بسّام : ولو يا خالتي.. الناس لبعضها، ونحن أهل.

الزرقاء : لكن القلوب فسدت، وانعدم التآزر بين الناس.

صوت امرأة : **(من داخل البيت)** أمي..

الزرقاء : **(وهي تنهض، وتدخل البيت)** ماذا هناك؟ لماذا لا تأتين؟!

صوت امرأة : إني أرضع الصغير.

(بعد قليل تخرج وهي تحمل بيد صينية الشاي، وباليد الأخرى تجر ولداً في السادسة من عمره. تضع الشاي على الحصير وتلتفت إلى الصغير).

الزرقاء : **(للولد)** اسمع.. أنت الآن رجل البيت. ومن العار أن يبكي الرجل، أو يعذّب أمّه. منذ الصباح وأنت تنغر.. ماذا تريد؟

الولد : أريد أن أشتري كولا.

الزرقاء : وما هذا الزفت؟!

الولد : كل الأولاد يشربونه ويحبّونه.

الزرقاء : **(تتناول ورقة مالية من عبّها وتعطيها للصغير)** خذ.. لن أحرمك من تذوّقها. اشتر واحدة، وعد إلى البيت فوراً

(يخرج الولد راكضاً ومسروراً) هل تعرف هذه المشروبات يا بسّام؟

بسّام : أعرفها يا خالة، ولكن لا أتعاطاها. كل هذه المأكولات والمشروبات التي يتهافت عليها الناس مملوءة بالسموم والمواد الضارّة. أحياناً لا أكاد أستوعب التغيّرات التي توالت على حياتنا في السنوات الأخيرة. ألن تقولي لي يا خالة ماذا أبصرت؟

الزرقاء : آه يا ولدي.. ليتني فقدت بصري قبل أن أبصر. أبصرت ابني يقتل ابني، وأنا مشلولة، لا أستطيع أن أتدخّل أو أتحرّك.. وأبصرت.. هل تريد حقاً أن تعرف ماذا أبصرت؟

بسّام : نعم يا خالتي..أريد أن أعرف، لأن قلبي مليء بالتوجسّات.

الزرقاء : يا ولدي.. ستزيدك المعرفة توجّساً، وسيتضاعف عذابك كلّما اكتشفت أنّك أضعف من أن تغيّر مسار الأشياء.

بسّام : ومع هذا أريد أن أعرف.

الزرقاء : المعرفة.. المعرفة.. أحياناً تكون الفطنة أن يتجنّب المرء المعرفة **(تبدو عيناها نفّاذتين وغائبتين، كأنها انفصلت عمّا حولها، وغاصت في أفق بعيد)** أشعر رعدة في ظهري، كأنها بداية برداء تعقبها الحمّى. ليتني لا أعرف ولا أرى. لا أدري متى تمّ ذلك، ولكن أعلم أن قرينه الشيطان، وأن بينهما اتفاقاً وميثاقاً. أنظر وأنظر.. تتعدّد أمامي الرؤى، وتتداخل الأشكال والهيئات، ولا أستطيع أن أبصر القرين بوضوح، لكني أبصر حركاته، وألمح شيئاً من خططه وآثاره. ستخيّم على القرية غواية لاتقاوَم. أبصر الناس وكأنهم شكارى، فقدوا البصائر والضمائر. مقاماتٌ تنهار، وأعراضٌ تباع. **(تغمض عينيها)** آه.. أبصر ما هو أرهب! أرى أشجاراً تخلع خضرتها، تتفحّم. أرى ثعباناً يتقيّأ فئراناً. أرى مطراً من الأشياء الملونة

والنفايات. والناس مسعورةٌ، تتناهب الأشياء والنفايات. تلتهم الأشياء والنفايات، تصير أشياءً ونفايات. آه.. ما أبصره يجعل أسناني تصطك.

بسّام : هدّئي من روعك يا خالة!

الزرقاء : ليتني لا أبصر. ليتني كنت قطرة ماء تحملها الأنهار إلى أعماق البحار، فأستقر هناك بعيداً عن عذابات الناس وعماها.

بسّام : أتكون أيامنا المقبلة مظلمة إلى هذا الحدّ؟

الزرقاء : وربما فاتتني علاماتٌ لم أبصرها.

بسّام : أعيتني هذه الرؤى وملأت قلبي غمّاً.

الزرقاء : أما حذّرتك؟

بسّام : ولماذا تعتقدين أننا لا نستطيع تغيير مسار الأشياء؟

الزرقاء : لأني عانيت ذلك. سأخبرك أمراً لايعرفه أحد حين أبصرت ابني يقتل ابني، ولم أستطع أن أتدخّل أو أتحرّك **(تزداد رعشتها، وتعجز عن السيطرة على أسنانها تصطك)** عن إذنك لحظة..

(تدخل إلى البيت تغيب فترة قصيرة، ثم تخرج وهي تلفّ جذعها ببطانية عتيقة).

بسّام : أعذريني.. لم أكن أعلم أن الإبصار يرهقك إلى هذا الحدّ.

الزرقاء : تلك نقمة ليتني لم أستعدها. **(لحظة)** إيه.. على أيامنا كانت الحياة أسهل. صحيح أننا كنّا نشقى في الأرض على مدار الفصول الأربعة، كي نؤمّن لقمة العيش، ونربّي أطفالنا. ولكن كانت الهموم بسيطة، والحاجات قليلة. ورغم الفقر والتعب كنا نشعر بالاطمئنان، والأيام تجري بيسر وأمان.

بسّام : لا يا خالة.. لن أترحّم على تلك الأيام. كان الفقر كافراً. ذات شتاء، وكنت صغيراً، لم نذق خلال شهرين متواليين

سوى الأعشاب المطبوخة بقليل من الزيت.

الزرقاء : وأنا لن أهلّل لهذه الأيام، التي يقتل فيها الأخ أخاه.

بسّام : معك حق.. لا هذه تستحقّ التهليل، ولا تلك تستدعي الترحّم. ولو توفّر لنا الوعي والإرادة، لوجدنا الطريق الصحيح، الذي يخلصّنا من الفقر، ويوفّر لنا التقدّم والكرامة.

الزرقاء : وهل يوجد طريق كهذا؟

بسّام : كيف أشرح لك يا خالة؟ من المؤكد أنه موجود، وأنه ممكن أيضاً.

الزرقاء : لا شك أنك تفهم أكثر مني. ولكن ما نحن فيه يجعلني أحنّ إلى الأيام القديمة.

بسّام : أما أنا فلا أستطيع أن أحنّ إليها، ولا أستطيع أن ألومك أيضاً. أخبريني.. أما زلت مصمّمة على بيع الأرض؟

الزرقاء : تلك أفحش سخرية تتعرض لها الزرقاء. قُتِل ابن وسُجِنَ الابن الآخر كي لا تباع الأرض.. وها هي تجد نفسها مضطرة لبيع الأرض، كي تربّي عائلة القتيل، وتفكّ ضائقة السجين.

(يدخل الولد وهو يحمل علبة من الصفيح فيها مياه غازيّة).

الولد : جدّتي.. جدّتي.. إنها طيّبة جداً.

الزرقاء : أهي أطيب من الشاي يا ولد؟

الولد : لا أريد الشاي بعد اليوم.

الزرقاء : أين الباقي؟

الولد : لم يعطني شيئاً.

الزرقاء : لاشكّ أنهم سرقوه.

بسّام : (وهو ينهض) لا.. هذا هو سعرها.

الزرقاء : إنه فاحش.

بسّام : (وهو يخرج) هذه أسعار الشيطان يا خالة.

الزرقاء : فعلاً.. هذا شراب الشيطان، وهذه أسعاره.. مع السلامة.
الولد : هل تذوقين بلعة صغيرة؟
الزرقاء : هات، ولا تقل لأحد. **(يناولها العلبة، ترفعها إلى فمها. تتردّد لحظة ثم تعيدها له)** خذ لا أريد.
الولد : **(وهو يدخل إلى البيت)** كما تشائين. سأعطي بلعة لأمي.
(تبقى الزرقاء وحيدة.. تسرح بصرها بعيداً.. ثم تتلاشى الإضاءة ببطء..)

مشهد ٧

(منبر الجامع الذي يُدشّن بعد اكتمال بنائه. الشّيخ عبّاس يقف على المنبر خطيباً، وفي الصفوف الأولى نلحظ عبّود الغاوي ومحمّد القاسم والمختار ووجهاء الضيعة).

الشّيخ عبّاس : الحمد لله الذي لاتفرغ خزائن رحمته، ولا تجفّ ينابيع فضله، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمّداً رسول الله، أندى الناس كفاً، وأوسعهم براً. أما بعد.. فإن الإسلام دين يقوم على العطاء والإنفاق، ويضيق على الشحّ والإمساك. ولذلك حبّب إلى بنيه أن تكون نفوسهم سخيّة، وأكفّهم ندية. ونحن اليوم نجتمع للصلاة في مسجد، ماكان ليبنى ويزخرف على هذا النحو البديع، لولا سخاء رجلين من أبناء هذه القرية. كلاهما غيور على دينه، كريم على أهله، كفّه مبسوطة للخير والعطاء. والرجلان هما عبّود الغاوي الذي قدّم المال بلا حساب لعمارة المسجد وزخرفته. والثاني محمّد القاسم الذي وهب الأرض لبناء الجامع ومرافقه. وإننا ندعو الله أن يبارك هذين الرجلين، وأن يزيدهما مالاً ورزقاً. أيها الأخوة.. أنتم تعرفون أن الله أكرمنا بعودة ابننا عبّود الغاوي، الذي بدّل خمول هذه الضيعة نشاطاً وحيوية، وأوجد مشاريع عادت على الناس بنفع عميق. وفي المستقبل سيتضاعف النفع بإذن الله، ويزيد. ونحن نعلم أن أموالاً

كثيرة تجري اليوم في أيدي الناس، هذا أمر ينبغي ألا نخجل منه، أو نخفيه، لأن الإسلام جعل الغنى نعمة يمتنّ الله بها، ويطالب بشكرها. ويجعل الفقر مصيبة يستعاذ بالله منها. ولهذا لا جناح علينا إن استكثرنا مالنا وزدناه. ولقد سمعت من ينصح الناس ويحضّهم على حفظ أموالهم بالبنوك، ولكن فات هؤلاء الناصحين أن الفوائد التي تعطيها البنوك هي نوع من الربا الذي حرّمه الإسلام، ونهى عنه. قال تعالى ﴿وأحل الله البيع وحرّم الرّبا﴾ وهذا يعني أن من يضع ماله في هذه البنوك الربوية، يخالف الدين ويقترف ما حرّمه الله. ولهذا أوجد المحسن الشهم عبّود الغاوي حلاً يتّفق مع الدين الحنيف، ويسمح لكم بمضاعفة المال والتنعّم بالأرباح. إنه يقترح أن تضعوا أموالكم لديه كي يشغّلها لكم في التجارة الحلال. وفي نهاية كل شهر يوزّع عليكم ما تدرّه التجارة من أرباح مع بقاء رأس المال محفوظاً بالتمام. وإذا كان ابننا عبّود الغاوي، ورغم مشاغله الكثيرة، يتحمّل من أجلكم هذا العبء، فلأنه هذه المرّة قد جاء كي يصل الرّحم، ويغدق على القرية خيراً ويسراً.

اللهم وفّق ابن الغاوي كما يريد توفيقنا، وضاعف أمواله كما يريد أن يضاعف مالنا. اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحةً لنا من كل شر.. آمين..

(وتتلاشى الإضاءة).

الفصل الرابع

مالا عين رأت.. ولا أذن سمعت

مشهد ١

(بيت المختار، المختار، أديب)

أديب : **(يخرج من جيبه مغلّفاً محشوّاً بالأوراق النقديّة، ويقدّمه للمختار)** تفضّل يا مختار.

المختار : **(وهو يتناول المغلّف)** ما هذا؟ **(يفتح المغلّف وينظر إلى الأوراق النقديّة)** لمن هذا المال؟

أديب : لكَ.. إنّه تعويض رمزيّ كان يتمنّى عبّود الغاوي لولا مشاغله الكثيرة، أن يأتي ويقدّمه بنفسه.

المختار : **(حائراً)** ولِمَ التّعويض! إنّي لا أفهم شيئاً.

أديب : علمَ الغاوي أنّك شجّعت النّاس على إيداع أموالهم لديه، فأحبّ أن يكافئ ثقتك وجهدك.

المختار : أيّ جهد! دائماً يأتي النّاس ويسألونني رأيي فيما يعرض لهم من شؤون. ربّما لأنّي المختار، أو لأنّي كبير في السنّ. إنّي أقدّم لهم رأيي ونصيحتي لا أكثر.

أديب : في هذا الزمن، زمن عبّود الغاوي، الرّأي والنصيحة لهما ثمن كأيّ عمل آخر، بل وأغلى من أيّ عمل آخر. أتعلم.. إنّه يدفع لي ثمن كلّ اقتراحٍ أقدّمه له، إذا وجد في الاقتراح فائدة لمشاريعه؟

المختار : كلّ ما قدّمته هو شيء من الكلام. والنّاس منذ أجداد أجدادنا يتبادلون النصح والرّأي بلا مقابل.

أديب : أمّا اليوم، فقد صار للنصيحة والرأي مقابل. تصوّر أنّي قدّمت لك نصيحة جعلتك تكسب مائة ألف ليرة، أفلا يقضي العدل أن يكون لي نصيب من هذا الرّبح؟

المختار : تعوّدنا أن نشكر، وأن نقدّم حلاوة.

أديب : طيّب.. على جاري عاداتكم، اعتبر هذا المبلغ حلاوة، ولا تنسَ يا مختار أنّ الحلاوة في هذا الزمن الجديد غدت ثمناً وحقّاً.

المختار : **(متردّداً)** يعني.. هل تقترح عليّ أن أقبله؟

أديب : هو حقّك فلماذا لاتقبله؟

المختار : وإذا علم النّاس؟

أديب : وماذا يهمّ.. يجب أن يدرك الجميع أنّ الموازين تغيّرت، وأنّ الزّمن الذي دخلناه، يعتبر الأفكار والنصائح والاقتراحات سلعاً تباع وتشترى، ولها أسعار. خذ مثلاً.. البارحة اقترحت عليه أن ينشئ فرقة للرّقص الشّعبي، قد تكون فرجة طريفة بالنّسبة للأجانب. فتحمّس كثيراً وقال لي: «هذا اقتراح يستحقّ مكافأة مجزية. دع الوساوس وضعها في جيبك».

(يضع المختار المغلف في جيبه).

أصوات : **(تتاهى من الخارج.. أصوات أولاد يردّدون كلمات دعاية تلفزيونية)**

«ولك مرتي.. مرتي عم تسأل جارتها
عن شيء.. عن شيء ينظّف جلياتها
ولَك عن شيء.. عن شيء يطرّي الأيدين
ويلمّع صحونها وكاساتها..».

المختار : تفضّل يا سيدي.. ماعاد في أفواه الصّغار والكبار إلاّ أغاني الدّعايات.

أديب : نعم.. والنّاس تشتري أجهزة وبضائع لم تكن تحلم بها.

المختار : لا ريب أنّ هناك أجهزة فيها منفعة وراحة. ولكن لست متأكّداً أنّها ضروريّة. إذا كان أهل البيت لن يغسلوا، ولن يفرموا البصل، ولن يقطفوا الخضار، فماذا سيفعلون؟

أديب : سيرتاحون أخيراً، ويعرفون طعم الرفاهية.

المختار : ومن أين نأتي بالمال؟ الآن بعنا أراضينا فماذا نبيع في المرّة القادمة؟ وكثرة البضائع تولّد الحاجة لدى الإنسان، حتّى ولو لم يكن محتاجاً. ولذا ترى الجميع يدورون ويدورون، يشترون ولا يكتفون. عيونهم فارغة، وعقولهم مبلبلة. لا أدري.. أنا أتكلّم على قدّ فهمي، وأخشى ألاّ نعرف راحة البال بعد اليوم.

أديب : لا تتعجّل الحكم يا مختار. كم مرّة تحاورنا حول ما يجري! نعم إنّ وفرة البضائع ستخلق لدى النّاس حاجات جديدة. ولكن ستخلق لديهم أيضاً الدّافع للعمل، والكسب، حتّى يلبّوا هذه الحاجات.

المختار : وأين سيعملون؟

أديب : ستوجد فرص عمل كثيرة. المجمّع وحده يحتاج إلى عدد كبيرة من الشّباب والبنات. وكلّما ازدهرت الأحوال، زادت فرص العمل، إنّ حركة السّوق وقوانينه هي التي تصنع التقدّم. وعبّود الغاوي مصرّ على أن يجعل البلد واحداً من أحدث الأسواق في العالم. لو ترى المجمّع وما فيه! **(يضرب يده على جبينه)** ماذا دهاني! سيأتيني الخرف مبكراً.. يتشرّف السيّد عبّود الغاوي بدعوة وجهاء الضيعة، مختارها والشّيخ عبّاس وعبد الرّحمن الدّرويش وحبيبنا وعمّنا محمّد القاسم لقضاء سهرة في المجمّع. وبالمناسبة كيف صارت علاقتك بعمنا محمّد القاسم؟

المختار : اعتذر عن خشونته، وتصافينا. وأنت؟ ألم تنزع الفتاة من فكرك؟

أديب : أنزعها! عاهدت نفسي يا مختار ألاّ أفكّ عزوبيّتي إلا معها وعلى زندها.

المختار : ماذا تأمل بعد ذلك الرّفض وتلك الإهانة؟

أديب : سأخبرك حين تنضج الحكاية.

المختار : إياك أن تتهوّر!

أديب : لاتخف عليّ.. أرجو فقط أن تبلغ عمّي محمّد القاسم دعوة السيّد عبّود الغاوي.

المختار : أخشى أن يرفض الدّعوة.

أديب : من هذه النّاحية.. اطمئنّ، سيكون أسرع منكم في تلبيتها.

المختار : لماذا تبدو واثقاً إلى هذا الحدّ؟

أديب : لأني أعرف أشياء صغيرة.

المختار : ماذا تعرف؟

أديب : **(وهو ينهض)** كل شيء في أوانه يا مختار.

أصوات : **(تأتي من الخارج. الأولاد يردّدون كلمات الدعاية التلفزيونية، فيما يخرج أديب)**

«ولا تحطّي إيدك ع خدّك
أوريس غسيلك بيبّض
صح.. صح
عيون النّاس.. عيون النّاس
بس تتطلّع ع غسيلك بسرعة
صح.. صح..»

المختار : هذا الشّاب، في إهابه جنيّ أو شيطان، وأحيان أشعر أنّ الضيعة كلّها مسكونة بالجنّ والعفاريت. يا ربّ.. تلطّف بنا،

ولا تجعلنا كتلك القرية التي أمرت مترفيها أن يفسدوا فيها،
حتّى حقَّت عليها اللّعنة.

(يخرج المغلّف من جيبه، ويبدأ بعدّ النقود.. تتلاشى الإضاءة).

مشهد ٢

(أمام مكتب عبّود الغاوي في المجمّع. يجلس ياسين على الأرض مستنداً إلى الحائط، وكأنّه ينتظر فرصة كي يلتقي بالغاوي. عيناه حمراوان، وهيئته توحي بالتداعي).

ياسين : **(يدندن بصوت خافت)**

أعمى وتاه بهالدني، مالو رفيق وتوّه معو قلبي
فلتت عصاتو العمتدلو عَ الطريق ودّعفر بدربو

(يمطّ الكلام قليلاً بسبب السكر) آه.. تعثّرت ووقعت. لا.. مستحيل.. أنا ربّ القوافي.. أنا الذّهب العتيق. هل يعقل أن يخطف الضّوءَ عنّي صِبيةٌ مخنثّون، يغنّون كأنّهم يموؤون أو يشخرون؟ أهذا شعر! أهذا قصيد! وكيف يطرب النّاس له! إيه.. دعك من المكابرة يا ياسين. دارت الأيّام.. دارت.. دارت.. حشرتك في طيّة من طيّاتها.. ورمتك خلفها. كان يريد أن يسجّل أشرطة، وأن يحقّق لي شهرة وثروة، ولكن ها هو يتحاشاني، ويتعمّد ألاّ يراني حين أصادفه. ما الذي جرى! لعن الله ليلة الافتتاح.. في تلك الليلة حدث شيء غريب لم يفسّره أحد. **(يخرج من جيبه الدّاخلي زجاجة عرق ويكرع منها جرعات.. يأتي الخادم).** أنت.. يا الله، ما أشدّ حاجتي إليك. **(يحاول أن ينهض لملاقاة الخادم، إلاّ أن ساقيه تخذلانه فيتزحلق، ويستقرّ**

جالساً على الأرض).

الخادم : لماذا تحاجني؟ أنت تعرف أنّ ديونك بالآلاف، ولا أدري كيف ستسدّدها!

ياسين : أعرف أنّي مديون. وأنّي اقترضت على الوعود التي منّاني بها السيّد عبّود الغاوي. ولكن ليس هذا هو الموضوع.

الخادم : ما الموضوع إذاً؟

ياسين : قُل لي ماذا حدث ليلة الافتتاح؟!

الخادم : أحقاً تريد أن تعرف؟

ياسين : نعم.. أريد أن أعرف. قُل الحقيقة حتّى ولو كانت ذابحة.

الخادم : في ليلة الافتتاح يا ياسين، ضحك المدعوون حين غنّيت، وتبادلوا تعليقات ساخرة.

ياسين : **(مبهوتاً)** ضحكوا.. ولماذا ضحكوا؟

الخادم : لأنّك بدوت، وكأنّك تأتي من ماضٍ بعيد.. من زمن نسوه، ولا يريدون أن يتذكّروه.

ياسين : هل تغيّر الزمن إلى هذا الحدّ! لم تمض سنوات.. هي سنوات فقط.

الخادم : السنوات زمن طويل في عصر الأقمار الصناعيّة. ولّى زمنك يا ياسين.

ياسين : **(تفرط من عينيه دموع)** ما أفظع قسوتك! تغرز الخنجر في قلبي، وكأنّك تزفّ لي بشرى.

الخادم : ألم تطلب الحقيقة حتّى ولو كانت ذابحة؟!

ياسين : **(يضرب على رأسه)** أكان يكذب عليّ؟ أنا متأكّد أنّه لم يكن يكذب. اسمع.. إنّ السيّد عبّود الغاوي أحبّ غنائي، ووعدني أن يسجّله على أشرطة يسوّقها في المهجر وهنا.

الخادم : سأقول لك شيئاً عن سيّدي، لا يعرفه أحد سواي.. هو لا

يفهم شيئاً في الغناء، ولكن تصيبه بين فترة وأخرى نوبات من الحنين، تدفعه إلى محبّة كلّ ما يرتبط بالماضي، ولاسيّما أيّام طفولته.

ياسين : أتعني أنّه لايوجد أمل؟

الخادم : أنت في ورطة يا ياسين.

ياسين : وأيّ ورطة! أتدرك.. (**ينجح في النهوض. يحاول أن يمسك الخادم من ذراعه، فينفض الخادم ذراعه، ويبتعد خطوة أو خطوتين**) إذا تخلّيتم عنّي فإنّ ورطتي مهلكة. لا أقصد الديون فقط، وهي وحدها تقصم الظهر. ولكن ما هو أفدح منها أن تنهار تلك الأحلام، التي غذّيتها طوال هذه الفترة. أنجدني.. دائماً كنت أحسّ أنّك ابن حلال.. اقترح عليّ شيئاً.. سأغدو مسخرة أهلي وقريتي.. سأموت ذليلاً ومقهوراً.. بالله عليك لاتتخلّ عنّي.

الخادم : (**يتبدّى النفور على سحنته**) إيّاك أن تحلّفني مرّة أخرى.

ياسين : لا أقصد أن ألزمك. إنّي أتوسّل إليك، وأرجوك.

الخادم : طيّب.. طيّب.. إيّاك أن تعيدها.

ياسين : لن أعيدها.. أتوسّل إليك أن تجد لي مخرجاً.

الخادم : لو كنت مكانك (**يتوقّف ويتظاهر بأنّه سيمضي**) ولكن ما دخلي أنا..؟

ياسين : (**يمسكه كالغريق**) لا.. ستقول لي. لو كنت مكاني ماذا تفعل؟

الخادم : إنك تنتظر من عبّود الغاوي الثّروة والشهرة، ولكن هل خطر لك في يوم من الأيّام، أن تقدّم شيئاً لعبّود الغاوي؟

ياسين : وهل ينقص عبّود الغاوي شيء! وأنا.. هل أملك شيئاً إلا حنجرتي وأشعاري؟

الخادم : أعطني أذنك يا ياسين.. وما سأقوله لك سرّ لن يعرفه سوانا.

أحوال سيّدي هذه الأيّام لا تعجبني. كنت أتوقّع أن يطفح سعادة وبشراً، ولكن توقعاتي خابت. منذ فترة لا أراه إلاّ وظلٌ من الكآبة يغطّي وجهه، ونادراً ما أسمعه يضحك! إنّه حزين وينقصه شيء ما.

ياسين : هل تعرف ماذا ينقصه؟

الخادم : لم أفاتح سيّدي بالموضوع، وأعرف أنّه سيغضب لو سألته، إلاّ أنّي أخمّن تماماً ما الذي ينقصه. إنّه يشعر بالوحدة، ولعلّه يفكّر بأنّ الوقت قد حان كي يهدأ ويستقرّ. ما ينقصه عذراء يسكن إليها، ويستقرّ معها.

ياسين : إذا كانت تلك هي المشكلة، فهناك ألف من تتمنّاه.

الخادم : وهل أجهل ذلك! اسمع يا ياسين.. أتريد فعلاً أن تخرج من ورطتك؟

ياسين : نعم أريد أن أخرج من ورطتي..

الخادم : إذن.. تذكّر أنك تملك أكثر من حنجرتك وقوافيك. في بيتك لؤلؤة لا يليق بها إلاّ سيّدي. وسيضحك لك الحظ، إن أعجبت سيّدي، وقرّر أن يسكن إليها، ويستقرّ معها.

ياسين : أتريدني أن أعرض ابنتي الغالية عليه؟

الخادم : ذلك هو مخرجك الوحيد، وتلك هي أيضاً فرصتك اليتيمة للشهرة والثروة.

ياسين : **(وكأنه يبكي)** إنها صغيرة.. إنّها طفلة.

الخادم : وسيّدي رغم عُمره، تتدفّق في عروقه حيويّة وطاقة يحسده عليهما الشّباب.

ياسين : ربّما.. ربّما.. لا أشك في ذلك. ولكن.. **(يتزحلق على طول الجدار ويجلس على الأرض)** ألا يوجد حل آخر؟

الخادم : كنت أتوقّع أن تشكرني يا ياسين، لا أن تساوم. انسَ ما دار بيننا، واعتبر أنّي لم أعرض عليك شيئاً. **(يتركه ويمضي)**.

ياسين : (متوسلاً ويحاول اللّحاق به زحفاً على الأرض) أرجوك.. انتظر..

الخادم : (وهو يبتعد) عندما تصل إلى قرار، تعال واسأل عنّي.

(ياسين مبطوح على الأرض. يتناول جرعة كبيرة من الكحول.. تلاشى الإضاءة).

مشهد ٣

(أرض فضاء فيها مصاطب حجريّة، بين المجمّع والقرية. المختار، ومحمّد القاسم، وعبد الرّحمن الدرويش، والشّيخ عبّاس، بعد سهرتهم في المجمّع. إنهم سكارى بدرجات متفاوتة.. كلماتهم وحركاتهم مشحونة بالتوتّر والانفعال والهياج).

المختار : بريق.. بريق يغشي الأبصار.

عبد الرّحمن : نعم.. كلّ شيء برّاق.. كلّ شيء يخطف الأبصار.

المختار : أضواء تتلألأ، كأنّها شموس تتفجّر.

عبد الرّحمن : وأضواء لطيفة، كأنّها أقمار ساهية.

الشّيخ عبّاس : وأضواء خافتة وحنون، تتساقط من عيون خفيّة، أو من مناخل عسليّة. لا أعرف كيف أصف.. لا نعرف كلمات تناسب ما رأيناه.

المختار : كيف نصف السحر والفتنة والرّخاء. كان المقعد رخيّاً، والنسمة التي تتماوج رخيّة، والنغمة التي تنفذ إلى القلب رخيّة.. وربّي هذا شيء لم أذقه في حياتي.

عبد الرّحمن : كيفما تحرّكنا، أو نظرنا، ثمّة ما يدهش ويخلب الألباب.

المختار : إنه حلم..

الشّيخ عبّاس : خلال خمسين سنة من الأحلام، لم أرَ حائطاً تتحرّك عليه أجساد سبحان الخالق. سبحانه حين أبدع، وحين كوّن.

محمّد : وتلك النافورة العجيبة. أرأيتم كيف يتشكّل ماؤها جسداً حيّاً

يتراقص، يميل، يغنج، وينثني!

عبد الرّحمن : رأينا ما لاعين رأت، وسمعنا ما لا أذن سمعت!

الشّيخ عبّاس : إي والله.. ما لاعين رأت، وما لا أذن سمعت!

المختار : (حالماً وشارداً) ما لاعين رأت، وما لا أذن سمعت!

الشّيخ عبّاس : لو أقام المرء فيه دهراً لما شبع، ولما قال اكتفيت.. لاسيّما إذا مسّته مع فتنة المكان فتنة الحبّ.

عبد الرّحمن : نعم هذا ما كنت أبحث عنه. ثمّة عطر. ثمّة نداء يترجرج عبر النغم والضوء وفورة الألوان. هناك ما يخفق حولك. هناك مايخفق فيك. إنّه الحبّ.. يملأ الفضاء يرتدي العطور والأنغام. يتسرّب عبر المرايا والنوافير. في ذلك المكان يستحيل أن ينجو المرء من الحبّ وأشواقه.

محمّد : كشفت دائي، ولمست مواضع وجعي يا عبد الرّحمن.

الشّيخ عبّاس : ودائي! لاتنسَ دوائي، أقصد دائي.. ماذا شربنا؟!

المختار : شرابٌ حلو وسلس، يدغدغ الحلق، وينشر دفئاً ودواراً ناعمين.. ناعمين.

محمّد : لا تذكروا النعومة والبضاضة أمام العاشقين.

الشّيخ عبّاس : كلّ كلمة أسمعها.. كلّ صورة أتذكّرها.. تفوّر جرحي، وتوجعني.

محمّد : وأنا! هل نسيت أنّي مثلك مجروح ونازف.

المختار : يبدو أنّ الشّيخ عبّاس ومحمّد القاسم يخفيان أسراراً دامية.

عبد الرّحمن : إنّه الحبّ يا مختار.. الحبّ الموجع الجميل، الذي يسخر من كلّ الاعتبارات..

محمّد : زادك الله فصاحة يا عبد الرّحمن. حقّاً هو الحبّ، الذي يسخر من كلّ الاعتبارات.. يا أوادم، ويا أفاضل الرّجال.. أنا محمّد القاسم، بقدري ومقامي وسنّي، تأكّدت الليلة أنّي أحبّ، وأنّ حياتي عدم إن لم أحصل على تلك التي أحبّ.

الشّيخ عبّاس : انتظر يا ابن القاسم، ولا تفرغ جعبتك كلّها. الصباح رباح.. وهناك من أبدى استعداده لحل مشكلتي ومشكلتك.

محمّد : من هو؟

الشّيخ عبّاس : دع هذه السيرة الآن.. ودعنا نتحدّث عن المكان. (**يتجشّأ**) ماذا أكلنا؟ من يعرف ماذا أكلنا؟

المختار : هل أكفر لو قلت إنّه بعض طعام الجنّة؟

الشّيخ عبّاس : لن تكفر حتّى لو قلت.. إنّ المكان كلّه، هو موضع من مواضع الجنّة.

عبد الرّحمن : يا جماعة.. أعتقد أنّ اللّياقة تقتضي أن نزور غداً عبّود الغاوي، وأن نشكره على دعوته.

الشّيخ عبّاس : وربّما يجب أن نشكر أيضاً خادمه، وأديب النّاطور، اللّذين لم يدّخرا جهداً من أجل إكرامنا والترحيب بنا.

المختار : وهذا واجب على كلّ حال. هل لاحظتم الحظوة التي يتمتع بها ابن النّاطور في المجمّع. والله كلّما مرّت الأيّام أزداد إعجاباً بهذا الشاب.

محمّد : ماذا تعني يا مختار؟

المختار : لا أعني إلاّ ما قلته..

محمّد : لا أعتقد أنّك تدقّ على وتر خفيّ لا أجهله.

المختار : وما هو هذا الوتر؟

محمّد : كأنك تريد أن تقول، ما كان يجب أن أرفضه حين طلب مصاهرتي.

الشّيخ عبّاس : وهل طلب مصاهرتك، ورفضت؟

محمّد : وهل كنت تريدني ألاّ أرفض؟

الشّيخ عبّاس : نعم كنت أريد ألاّ ترفض.. إنّ كلّ شيء بيده. الآن دارت لي.. قال لي لن تنالوا حتّى أنال.

محمّد : أتظنّ فعلاً أنه قادر؟

الشّيخ عبّاس : نعم إنّه قادر.. وفي الواقع هو الذي يدير المكان وما فيه.

محمّد : وأنت يا مختار.. أتعتقد فعلاً أنّه يجب ألاّ أردّه خائباً؟

(هدير سيّارة يقترب من المكان)

المختار : سأكون صريحاً حتّى ولو حدث بيننا زعل. أعتقد أنّ أديب الناطور شابٌّ كفء لابنتك، ويليق زوجاً بها.

محمّد : طيّب.. أين يمكن أن نجد أديب النّاطور الآن؟

المختار : لاشكّ أنّه في المجمّع.. وعلى كلّ ليس هناك ما هو مستعجل.

(يتوقف هدير السيّارة، وبعد قليل يظهر أديب النّاطور مقترباً منهم).

محمّد : لا.. الليلة.. أريد أن أراه الليلة..

أديب : أما زال الأعمام هنا! أرجو ألاّ يكون هناك سوء. هل أصاب أحدكم مكروه؟

المختار : لا.. لاشيء.. أردنا بعد هذه السّهرة العجيبة، أن نتسامر، ونشمّ الهواء.

محمّد : فعلاً.. أذكر الدّيب وحضّر القضيب! تعال يا أديب.. واجهني..

أديب : **(يتقدّم منه ويواجهه بثبات)** ها أنذا أمامك يا عمّ.

محمّد : أما زلت تريد ابنتي زوجة لك؟

أديب : وسأظلّ أريدها حتّى الممات.

محمّد : إذن ضع يدك في يدي. **(يضع كلّ منهما يده في يد الآخر)** أتحمل يا مختار منديلاً؟

عبد الرّحمن : **(يخرج منديلاً من جيبه، يفتحه ويضعه فوق يديهما)** هو ذا المنديل..

محمّد : تعال يا شيخ! دعنا نقرأ الفاتحة. وسيكون المختار وعبد الرّحمن هما الشاهدان. انتظر يا شيخ، قل لي يا أديب، هل

كنّا نشازاً في المكان، أو هل بَدَوْنا مضحكين؟

أديب : معاذ الله يا عمّ.. وعندما يتكرّر تردّدكم على المكان، ستألفون كلّ شيء، وتحسّون أنّكم تسبحون في مائكم.

عبد الرّحمن : وتلك الطاولة المرقّمة والملوّنة، والتي تنتهي بتجويف مليء بالحفر، تدور فيه طابة صغيرة..

أديب : لاشكّ أنّك تتحدّث عن لعبة الروليت.

عبد الرّحمن : كان حولها حشد من النّاس.

أديب : إنها لعبة محبوبة جدّاً.

عبد الرّحمن : أحقّاً يمكن أن يجني منها المرء أرباحاً؟ ألا يوجد في اللّعبة غشّ؟

أديب : اللّعبة لا غشّ فيها. وإذا حالفك الحظّ يمكن أن تجني أرباحاً طائلة.

محمّد : أهذا أوان الأسئلة يا شيخ عبّاس.. دعنا نقرأ الفاتحة ونخلص.

(وهم يقرأون الفاتحة.. تتلاشى الإضاءة).

مشهد ٤

(في بيت ياسين. يبدو ياسين مرهقاً وزائغ العينين. تجلس فضّة بهدوء في ركنٍ مفروشٍ ومخصّص لها. لقد تحجّبت.. وهي ترتدي الآن ثياباً بيضاً لا يظهر منها إلاّ الوجه واليدان. يبدو على وجهها الذي شحب لونه نوعٌ من البلادة والرضا الحزين. رباب التي ازداد شبابها تفتّحاً وجمالها تألّقاً، تقضم أظافرها كطفلة مرتبكة وحائرة).

فضّة : ليتك يا رباب تكفّين عن قضم أضافرك. هذه عادة سيّئة يا ابنتي، ويقال إنّها تسبّب فقر الدّم.

رباب : **(تجفل من شرودها، وتضع يديها خلف ظهرها)** حاضر يا أمّي.

ياسين : **(متحاشياً أن تلتقي عيناه بعيني ابنته)** إنّي أنتظر جوابك يا رباب.

رباب : **(بصوتٍ منكسر)** لا أعرف ماذا أجيب يا أبي.. علمي أنّك رفضت من قبل، حتّى مجرّد طرح الفكرة.

ياسين : وكان ذلك حمقاً منّي. لم أكن أعرفه إلاّ من القيل والقال، ونمائم النّاس. أمّا الآن بعد أن عاشرته هذه المدّة كلّها، فإنّي واثق أنّي لا أرميك إلى المجهول، بل أرتّب لك مستقبلاً، يرفل بكلّ ما يتمنّاه الإنسان. المال والدلال والرفاهية.

رباب : هل وعدته يا أبي؟

ياسين : (مرتبكاً) وهل يمكن أن أَعِدَهُ، قبل أن أعرف رأيك؟

رباب : ألن تشعر بالضيق لو رفضت؟

ياسين : طبعاً لا أتمنى أن ترفضي مافيه مصلحتك، وأمّك تشاطرني الرّأي. لماذا لاتقولين شيئاً يا فضّة؟! أما كنت تجدين هذا الزواج نعمة لا تردّ؟

فضة : تلك أيام مضت..

ياسين : ما الذي مضى؟ ماعدنا نفهمك يا فضّة. ما الذي حدث؟ أنسيت اليوم البعيد حين فاتحتي بالأمر، ألم تكوني متلهّفة وراضية؟

فضّة : تلك الأيّام.. ليتك لاتذكّرني بها. آه حين كنت أرغب وأرغب.. حين كانت الرّغبات عناقيد من الأفاعي تتدلّى في داخلي، وتصبّ سمّها في شراييني.. حين كان هذا البدن يعجّ بالرّغبات والشّهوات وفحيح الأفاعي. آه.. تلك الأيّام، حين كنت أشعر دائماً أنّي لا أحصل إلاّ على الفتات، حين كنت أحسّ أنّ جوعي لايشبعه كلّ ما في العالم من طعام، وأنّ عريي لا يستره كلّ ما في العالم من ثياب. آهٍ.. تلك الأيّام حين كنت أحسّ بالاختناق، ولا أجد راحة إلاّ في البكاء. كنت أبكي قهراً، وكنت أبكي غضباً.. ويوم كان افتتاح ذلك المكان أيقنت أنّي سأموت. كنت أختنق وأبكي.. كنت أحشرج.. وفجأة.. لا أدري كيف أصف ذلك. مسّني روحٌ عذب وهادئ، فاتّسع صدري، وسرَت فيه برودة روح النعناع. هكذا.. فجأة أدركت أنّ العناية الإلهيّة رقّت لحالي، وومضت في داخلي. شعرت أنّي أغتسل، وأتخلّص بنعومة ووداعة، من الشّهوات والرّغبات والأفاعي.. ومنذ تلك اللّحظة التي عرفت فيها الطمأنينة ونعمة الرّضا، ماعدت أريد أن أتذكّر تلك الأيام التي مضت.

ياسين : إنّي أغبطك من أجل طمأنينتك، وأغبطك لأنّ العناية الإلهيّة ومضت في داخلك. وأدعو الله أن يمنّ علينا كما منّ عليك. ولكن هذا كلّه، لايمنع أن تبدي رأياً في مستقبل ابنتنا. ألا توافقين معي أنّ العرض الذي حملته لها جدير بأن يسعدها؟

(يتاهي من بعيد صوت يرفع الأذان، وفي ركاكة ونشاز..)

فضة : **(وهي تنهض)** ومن يدري أين توجد سعادة الإنسان؟ عليك أنت ورباب أن تقرّرا هذا الأمر. أمّا أنا فقد حان وقت وضوئي وصلاتي.

رباب : أذكر جيّداً ليلة الافتتاح، وكيف غادرت السّطح، وهي تتعثّر بدموعها. ألم يكن اعترافها مؤثّراً؟ تلك المقاساة الرّهيبة.. وكيف جاءها الفرج وشفتها العناية الإلهية.

ياسين : كانت أمّك دائماً متطرّفة في تقلّباتها. وما وصلت إليه ليس حلاً، بل تعبير عن اليأس لا أكثر. إنّ من يشعر أنّ العناية الإلهيّة غسلت قلبه بالهداية والرّضا، ينبغي أن يزداد غيريّة، وأن يضاعف حبّه ورعايته للذين حوله. أمّا هي فقد غدت أنانيّة، لا تشغلها إلاّ مظاهر تحوّلها. لقد ابتعدت عنّا، ولم تعد تهمها مشاكلنا ومعاناتنا. انظري.. هل خطر لها أن تسألني عمّا أقاسيه؟ هي وجدت حلاً، واستراحت فأدارت ظهرها لنا جميعاً. أمّا أنا فينبغي أن أتحمّل معاناتي وحيداً.. أن ألعق جرحي بلساني دون أن أنتظر يداً تسعفني. إنّي وحيد يا ابنتي. كنت دائماً وحيداً. لم يخطر لها مرّة، لا قبل الهداية ولا بعدها، أن تسألني عمّا أعانيه، أو تساعدني على تضميد جرحي.

رباب : أتبكي يا أبي؟ لا أستطيع أن أراك تبكي.. قل لي ماذا

يوجعك؟ أنت لا تعرف كم يسرّني أن أشاطرك الوجع، بل وأن أتحمّله عنك إن استطعت. إنّي معك يا أبي.. وسأفعل كلّ شيء من أجل راحتك؟

ياسين : **(يزداد بكاؤه)** هذا الكلام يزيد وجعي. لا أريد أن تكوني طيّبة إلى هذا الحدّ.

رباب : أيكون للبنت منّة إذا ساعدت أباها؟ دعكَ منّي، وقل لي.. أنت في مأزق؟ ألست في مأزق؟

ياسين : **(يمسح دموعه ويتمخّط)** لا أدري كيف أسلسل لك الأمور.

رباب : دعكَ من تسلسل الأمور يا أبي، وقل لي آلآنت في مأزق أم لا؟

ياسين : **(تعود فتسيل دموعه)** ولكنّك أصغر من أن تتحمّلي كلّ هذه الخيبات.

رباب : **(وهي تمسح دموعه بحنان)** لاتشغل بالك.. إنّي أصلب ممّا تظنّ. إذن أنت في مأزق...

ياسين : لقد مدّوا لي، وكبّلوني بالدّيون. ولكن صدّقيني، إنّ الدّيون لا تقلقني، حتّى ولو رموني بقيّة عمري في السّجن. مازالت لديّ أحلام يا رباب. تعهّدوا أن ينفّذوا كل وعودهم السابقة. سيكون لي اسم وذكر. لن يضيع عملي، ويطويه النسيان.

رباب : هل أفهم أنّ موافقتي ستشفي وجعك، وتحلّ كل المشاكل التي تعاني منها؟

ياسين : وما يُعرض عليك يا ابنتي، لايمكن أن تستخفّ به فتاة عاقلة.

رباب : لو أنّ الأمر يتعلّق بي.. نعم يا أبي.. معك حقّ.. هذا عرض لايمكن أن تستخفّ به فتاة عاقلة.

ياسين : أليس جميلاً أن يعيش المرء في بحبوحة، وأن ينال كلّ ما ترغبه نفسه؟

رباب : أتعلم ما الذي كنت أرغب فيه، أكثر من أيّ شيء في هذه الدّنيا؟

ياسين : ما هو؟!

رباب : أحياناً كنت أحلم أنّنا نرحل معاً، أنا وأنت فقط. ننتقل من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينة.. لا نحمل على أكتافنا إلاّ ربابتك، وأخفّ المتاع. لا هموم.. ولا منغصّات.. نلهو ونضحك كطفلين سعيدين.. أنت تغنّي، وأنا أعتني بك، وأحفظ أغانيك.. نأكل حين يتوفّر طعام. وننام حين يتوفّر مكان. ونأخذ دون حياء مايعطونه من هبات. قبل أن يأتي عبّود الغاوي إلينا.. في تلك الأيام البعيدة، كانت الحياة سهلة، وكانت الأحلام بسيطة وممكنة. الآن.. تعقّد كلّ شيء، وعلينا أن نتكيّف مع التعقيد. إنّي أقبل عرض عبّود الغاوي، وسأكون زوجة له.

ياسين : أين كنت تخبّئين هذا كلّه.. يا ابنتي؟ لو علمت..

رباب : (مقاطعة) لا تقل شيئاً يا أبي.. اذهب وأخبره أنّي قبلت.

ياسين : آه.. يا رباب.. ضمّدتِ جرحاً، وشققت في روحي جروحاً لا تضمّد.

رباب : إذا واصلنا النواح، فلن أتزوّج يا أبي.

ياسين : أواثقة أنّك توافقين؟

رباب : نعم.. إنّي أوافق.. ولاتلم نفسك كثيراً.. فأنا أيضاً خدّرتني الرّغبات الكثيرة ليلة الافتتاح.

ياسين : أتحاولين التّخفيف عنّي!؟

رباب : لاتتعبني يا أبي.. إني لا أفهمك.. أتريدني أن أرفض؟!

ياسين : لا.. يا ابنتي.. ولكن..

رباب : يا الله.. اغسل وجهك، واذهب إليه. أريد أن يصل جوابي اليوم لا الغد.

ياسين : (وهو ينهض) نعم سأفعل.

(يخرج. تحملق رباب في الفراغ. تغرورق عيناها بالدّموع.. وتتلاشى الإضاءة...)

مشهد ٥

(في المخزن، يوسف العلوني وزوجته فاطمة وخلف الدوري)

يوسف : أراك مبكراً أكثر من العادة.. ماذا تحتاجون اليوم؟

خلف : اليوم لانحتاج تموينأ.. بل نحتاج فنّاً.. كيف تجدين هذا الجواب يا فاطمة!

(يتملأها) آه.. كم كنت حماراً.

يوسف : دعنا من الرغي، ولا تحدّثني بالألغاز، ماذا تحتاجون اليوم؟

خلف : أتظنّني أمزح؟ ما نريده اليوم هو الفنّ.

يوسف : أي فنّ؟

خلف : ها.. ها.. أتذكرين يا فاطمة آخر مرسح عرفته هذه الضّيعة؟ كان ذلك يوم أصرّ ابن البدوي، أنْ يقيم عرسه حسب العادات القديمة في تلك اللّيلة.. أوقدنا النّار في الميدان، وعلى دقّات الطّبل والمزمار انعقدت حلقة الدّبكة. تصوّري.. أذكر هذا وكأنّه حدث البارحة. كنت مهرة لم يكد ينهد صدرها..

يوسف : **(مقاطعاً)** ماهذا! قلت لك دعنا من الرغي، وادخل في المفيد.

خلف : بالله عليك يا فاطمة.. هل يسمّي كلامي وتلك الذكريات رغياً إلاّ عديمُ الإحساس؟ طبعاً أنت لا تذكر شيئاً عن تلك

الليلة، لأنك كنت مشغولاً بالبيع وعدّ المصاري. أمّا فاطمة فكانت تقود الرّقص كأنّها خيّال، ووجهها يقمّره لفح النّار، وجسدها يتثنّى كالعجين مع إيقاع الطّبل والمزمار.

فاطمة : وما مناسبة هذه الذكريات التي تنبشها يا خلف؟

خلف : ها.. ها.. هذا سؤال مفيد. إنّ سيّدي يعتقد أنّه كان لدينا فنون جميلة لايجوز أن تندثر، أو يلفّها النسيان. وهو يقول إنّ السائح لا يأتي إلى بلادنا، لكي يرى ما سئم منه في بلاده. إنّه يأتي لكي يرى مناظر جديدة، ويعرف متعاً غريبة، ويتذوّق فنوناً جديدة. ولهذا قرّر أن تكون في المجمّع فرقة صغيرة للرقص الشعبي، تتميّز بالأناقة والبراعة والجمال، وحين طلب منّي أن أختار له صبيّة تتقن الرّقص، وتحسن التدريب، كي يسند لها مهمّة تشكيل الفرقة وتدريبها، تذكّرت تلك اللّيلة، ولاح لي جسدك العجيني على ضوء النّار. فقلت له: لايوجد سواها يا سيدي. سألني من؟ فأجبت: فاطمة زوجة شريكنا يوسف العلّوني.

يوسف : أقلت له شريكنا؟

خلف : لاتخف.. لاتخف.. أعني شريكه، ما رأيك يا فاطمة؟

فاطمة : ومن داس على ذنبك، وطلب منك أن تقترحني؟ أتراني فاضية للرّقص؟

خلف : سامحك الله.. أردت أن تتميّزي، وأن تباهي كلّ الصبايا. وفوق هذا سيكون لك راتب يسيل له اللعاب.

فاطمة : فقد جسمي ليونته، ونسيت الرّقص. أمّا الرّاتب فإنّي أستغني عنه.

خلف : السباحة والرّقص شيئان لاينساهما المرء. وجسدك الذي تفتّح وأزهر، مازال ليّناً كالخيزران.. إنّ سيّدي متحمّس جدّاً لهذه الفرقة، وهو يتعشّم أن تساعديه في تكوينها. أخشى أن

يزعل، إذا قابلتِ حماسته وعشمه بالرّفض.

يوسف : نحن لم نرفض بعد، ولكن أعطنا مهلة كي نفكّر، ونتشاور في الأمر.

خلف : لديكما اليوم بطوله كي تتشاورا. وغداً أرجو أن تكون فاطمة جاهزة، لأنّ سيّدي يعلّق أهمّيّة كبيرة على تكوين هذه الفرقة.

(يخرج خلف. فترة صمت بين الزوجين).

يوسف : ما رأيك؟

فاطمة : ما رأيك أنت؟

يوسف : أنا مثلك لا أشعر بالارتياح.

فاطمة : إذن لايحتاج الأمر إلى أخذ وعطاء.. غداً نبلّغه برفضنا وننتهي.

يوسف : نعم.. ولكن أخشى.. المسألة ليست بهذه السّهولة.. لانعرف ماذا أخبرهُ خلف عنكِ، وربّما أخذ الرّفض على محمل الإهانة.

فاطمة : هل أنت تلفّ وتدور.

يوسف : بصراحة.. لا أريد أن يزعل عبّود الغاوي، ولا أن يشعر بالإهانة من طرفنا.

فاطمة : والحلّ.. هو أن أقبل العرض.

يوسف : قلتُ لكِ.. لا أشعر بالارتياح، ولكن أعتقد أنّنا لا نستطيع أن نرفض.

فاطمة : وكيف يمكن أن ترفض رغبة يديها وليّ النعمة؟

يوسف : لا أفهم سبب نفورك الدّائم! نعم.. إنّه وليّ نعمتنا. أتعرفين كم بلغت ثروتنا بعد شراكتنا معه؟

فاطمة : لا أعرف كم بلغت ثروتك من العمل أجيراً في مخازن عبّود الغاوي.

يوسف : (غاضباً) أجير! هل تتعمّدين إهانتي! إنّي شريك وليّ الرّبع.

فاطمة : ليكن.. أنت شريك. ولكن مقابل هذه الثّروة، ألم تلاحظ أنّنا خسرنا السّعادة والهناءة؟

يوسف : ما كنّا لنخسر شيئاً، لولا أنّكِ امرأة صعبة ونكدة.

فاطمة : أتصفني أنا بالصّعوبة والنكد؟ أما كنت تتباهى دائماً بأنّ لديك امرأة عذبة ورضيّة؟

يوسف : لو تعلمين كم تغيّرت!

فاطمة : وأنت ألم تتغيّر؟! ما رأيك لو قلتُ لك إنّ فرقة الرّقص ليست إلاّ حجة واهية، كي يستدرج عبّود الغاوي صبايا الضيعة إلى المجمّع، ويدخلهنّ في عمله.

يوسف : وتفترضين افتراضات لاتنزل من مسربٍ أو غربال.

فاطمة : وإذا صحّت افتراضاتي، هل ترفض وتقول لا؟

يوسف : يا فاطمة.. هذا الرّجل كانت يده بيضاء علينا.. ومهما شكرناه، فلن نوفّيه فضله. إنّي لا أعرف سبب نفورك منه. إذا تناسينا افتراضاتك الغريبة، فإنّ ما عرضه الرّجل لائقٌ، ولايمسّك في شيء.

فاطمة : إذن تريد أن أقبل.

يوسف : نعم.. يجب أن تقبلي، وليس من المصلحة أن يزعل منّا أو يجافينا.

فاطمة : طلّقني يا يوسف.

(تتركه وتمضي)

يوسف : انتظري.. أين تمضين؟

فاطمة : سآخذ بعض حاجياتي، وأذهب إلى بيت أهلي.

يوسف : **(محاولاً اللّحاق بها)** تمهّلي، يجب أن نتابع الحديث.

فاطمة : **(دون أن تلتفت)** منذ زمن بعيد، لم يعد بيننا ما يقال.

(تبتعد مختفية، فيما يقف يوسف بليداً وحائراً).

يوسف : (متمتماً) ما الذي غيّرها! أيمكن أن يوجد إنسان لا يحبّ المال، ولا يسعده الغنى! أيمكن أن يوجد إنسان يدلّل الفقر، ويلبط النّعمة! هذا حمقٌ وجنون. نعم.. هي حمقاء ومجنونة.

(تلاشي الإضاءة).

الفصل الخامس

الزرقاء تبصر، وتروي مقاطع من ملحمة السراب..

نقاشات.. ونهايات..

مشهد ١

(جناح كريمة وزهيّة في المجمّع. كريمة وزهيّة في أخفّ الملابس وأكثرها إثارة. الخادم وقد خفّت حدبته، وبدا أكثر شباباً. محمّد القاسم والشيخ عبّاس يغوصان في أريكة مريحة، ويبدو عليهما الانبهار والارتباك.

في بداية المشهد يتحرّك الشيخ عبّاس في جلسته، فيختلّ توازن محمّد القاسم الهشّ، ويميل إليه.. تنبعث أصوات محرجة من جلد الأريكة في احتكاكه المرن مع فخذي الرجلين، يتمايلان لحظات، فيما يزداد تعبير الحرج على وجهيهما حتى يجدا وضعاً مستقراً، فيلبدا فيه).

محمّد : (هامساً) في طيظك دود! اسكن ولاتتحرك.

الشيخ عبّاس : (هامساً هو الآخر) غصباً عني.. غصباً عني.. ألا ترى كم هي ليّنة؟

الخادم : لماذا لاتسترخيان؟ إن الفن الذي نمارسه في المجمّع هو فنّ الاسترخاء. هنا ينبغي أن ننسى قيود العالم الخارجي واعتباراته. ينبغي أن ننسى العيون ونظراتها، المعايير وأحكامها. وأهم من ذلك أن نخلع المراتب، والأسماء، وأشجار العائلات.. وما لاأدري من السلاسل والتصنيفات. ولهذا جعلنا في مدخل الجناح حمّاماً واسعاً، يدخله المرء، كي يغسل كل أدران الخارج، ويزيل قيوده وعلاماته. وحين

يدبّ خدرٌ لذيذ في جسده النظيف، وتسترخي أعصابه وروحه، يدخل الجناح جاهزاً، كي يذوق مباهج وقتٍ لا تقيسه الساعات، ولايدخل في دورة الليالي والنهارات.. يا كريمة.. ألا يوجود غناء؟ ألا يوجد نغم؟

كريمة : ماذا دهاك؟ ألاحظ أنك غدوت خفيف العقل واللسان. ما الذي تشرحه لزورانا؟ ومتى كنا نكشف أسرار بيتنا أمام زائر لا نعلم ماذا يريد؟

الخادم : لن أكابر.. لومك محقّ.. كنت أحاول مساعدتهما على الكلام. ولكن يبدو أني أسرفت في اللتّ والعجن.

محمّد : **(ناهضاً ومتجهاً نحوه)** لا، لاتقل ذلك.. ليتني أملك مقدرتك على الكلام. لديّ ما يتجمّع هنا **(مشيراً إلى يسار صدره)**.. نعم.. يتجمّع.. ويلتف، والمصيبة أني لا أعرف كيف أخرجه أو أقوله.

الخادم : اهدأ.. اهدأ..

كريمة : ماذا تحمل في صدرك يا ابن القاسم؟ وما الذي جئت تنشده لدينا؟

محمّد : أرجوكِ لاتخطئي في فهمي.. ماجئت بنيّةٍ تشوبها ريبة. جئت بقصد شريف، وغاية المنى أن ينال قصدي رضاكِ.

الخادم : الرجل صريح، والقصد واضح.

كريمة : وما أدراني أنها ليست نزوة أو شهوة؟ قل أيّ شيء.. أريد أن أسمعك تعبّر عمّا تشعر به. وأن تصف لي هذا الشيء الذي يكبر في صدرك.

محمّد : **(متجهاً إلى الخادم)** أنجدني يا ساحر اللسان...

كريمة : أريد ما ينطق به لسانك أنت..

الشيخ عبّاس : **(يحاول أن ينهض، لكنه لا يستطيع لأنه غائص جداً في الكنبة. يتمايل ثم يميل على جنبه في وضع مضحك)** قولوا

لي.. أينتظرني امتحان مشابه؟!

زهيّة : بل سيكون امتحانك أشدّ، لأن لديك ألسنة لا تعدّ.

الشيخ عبّاس : سامحك الله.. تعالي وأنجديني.

(تذهب زهيّة إلى حيث يجلس الشيخ عباس، وتشاطره الكنبة. يميل أحدهما على الآخر، ويتضاحكان).

كريمة : قلبتم كل شيء إلى تهريج. مازلت أنتظر يا ابن القاسم.

محمّد : ماذا أقول؟ أتسمعينَ دويّ الطبل؟

كريمة : أي طبل؟ لا.. لا أسمع شيئاً.

محمّد : ماذا أفعل. أحياناً أشعر.. بل لماذا أحياناً.. الآن أشعر أن دقّات قلبي تشبه دويّ الطبول.. وأن الدويَّ يصمُّ آذان الذين يوجدون قربي.

كريمة : أهذا كل ما لديك؟ دويّ طبول يصمّ الآذان.

محمّد : وما ذنبي.. إذا كنت لا أحسن الكلام. سأقول لكِ كيف بدأ هذا الأمر. فجأة، وكمن يصحو من رقاد، وجدتُ وجهك أمامي. أينما تطلعت وكيفما اتّجهت ثمّة هذا الوجه الذي يشعّ سحراً وفتنة. في السماء، في الشجر، في الظل، في الشمس، في الغيم، في الزرع، في كل مكان، ثمّة هذا الوهج من السحر والفتنة. ولم تفلح مقاومتي، ولم أعد أجد الراحة أو السكينة. فتكَ سحرك بي، وجرّني كالمذبوح أقفو أثرك، وأعدو وراءك.

الخادم : كلامٌ جميل، وتعبير يحزن ويغمّ، لأنه يخلو حتى من احتمال الكذب والتدليس.

الشيخ عباس : عوّضت عن التأتأة يا ابن القاسم، ولم تترك لغيرك ما يقوله.

كريمة : مسّني كلامك، وحرّك في داخلي وتراً كنت أحسبه غافياً أو مقطوعاً. أشعر ضعفاً في ساقيّ **(تمسك يده)** تعال نجلس.. **(يجلسان)** والآن.. ماذا تريد مني؟

محمّد : أريد أن أطلب يدك.
الخادم : أجئت تطلب فقط؟
محمّد : ماذا تعني؟
الخادم : في مثل حالتك ينبغي أن تلوّح بالعطاء قبل أن تطلب.
محمّد : هل أعتبره وكيلك؟
كريمة : إنه وكيلنا معاً.
محمّد : ألستُ من مقام السيّد عبّود الغاوي حتى يرسل لنا خادمه!
كريمة : لاتخطئ فهم الأمور يا حبيبي. ابتعد عبّود كي يجنّبنا، ويجنّب نفسه الحرج.
محمّد : هل قلت يا حبيبي!
كريمة : أتريد أن أعيدها؟
الخادم : لم تجبني على ملاحظتي.
محمّد : إن كنت تقصد الحديث عن المهر وما شابه، فإن كل ما لديّ تحت تصرفها.
الخادم : هذه مجاملة لا عطاء.
محمّد : لا.. إني أعنيها. وأقول بملء فمي.. إني أقدّم لها كل ما أملك.
كريمة : **(وهي تلاعب محمّد القاسم)** هذا هو الرجل الذي يملأ قلب المرأة، وعينها، وحضنها.
الخادم : وأنت يا شيخ عبّاس ما عدنا نسمع لك صوتاً أو نفساً؟
الشيخ عبّاس : لا تخف.. إني حيّ.. وإني في مكاني..
زهيّة : حان دورك كي تعبّر عن مشاعرك.
الشيخ عبّاس : ماذا أعبّر؟ أتذكرين ذلك اليوم في المخزن، حين جلّلني العرق، وتبلّل شاش عمامتي؟ كان ذلك غريباً. كان كالرؤيا. المكان غريباً. كان كالرؤيا. المكان غريب، والزمان عجيب، وأنا كالمأخوذ أكتشف بهاءك، وكأني أراك لأوّل مرّة في حياتي.

إنها ساعة غريبة تغيّر كل شيء بعدها. كنت أعلم أن التعلّق بهذا البهاء ذنب ومعصية. وكنت كلّما ازددت علماً، ازددت تعلّقاً. وفَلَت أمري من يدي، وعرفت أن هذا الحب قَدَرٌ لا يردُّه دعاء أو صلاة.

الخادم : أبدعت يا شيخ. هذا الحبّ لاتبتكره، وتودعه في القلب إلا يد شيطانٍ بارع، شيطانٍ متفرّغ للعشق وفنونه.

الشيخ عبّاس : إني أحبّ من وهبني هذا الحبّ، حتى ولو كان الشيطان نفسه..

زهيّة : أتعلم أن كلامك أثار نملاً في ظهري، وأرعشني. أتريدني كما أراد ابن القاسم كريمة، وعلى شرطه؟

الشيخ عبّاس : نعم.. وهذا يعفينا من التكرار.

الخادم : أتعطي كل ما لديك يا شيخ عبّاس؟

الشيخ عبّاس : وفوق ما لديّ هذه العمامة.

الخادم : لا.. لانستطيع أن نستغني عن بركات عمامتك، وفوائدها العميمة، فثبّتها على رأسك، وحافظ عليها حتى هنا. سنحتاج إليها بعد قليل، كي نبرم المواثيق. ستعقد نكاحك على زهيّة، ونكاح محمد القاسم على كريمة، وسأكون الشاهد.

الشيخ عبّاس : ينقصنا شاهد ثانٍ.

الخادم : لاتخف.. إن عبد الرحمن الدرويش لايكاد يبرح طاولة الروليت، ويمكن أن نحضره خلال دقائق. لكن قبل أن نبدأ الاجراءات، أريد أن أقول لكما بضع كلمات. منذ اليوم ستبدآن حياة جديدة، حياة فيها من المباهج واللذات ما لايستطيع أيّ منكما أن يتخيله. لكن اللّذة لايتمّمها في هذه الدنيا، ويغذيها إلا وفرة المال. وأنا حين اقتضيت أن يسلّم كلّ واحد ما يملكه لقرينته، وأن يعطيها العصمة وحرية

التصرّف بالمال، فما ذلك إلا لأني درّبت هاتين الساحرتين على السبل التي تضاعف المال، وتزيد الثراء ثراءً. ستتخذان من أموالكما منطلقاً ورأسمالاً، ومن وجاهة الاسم والمقام حماية وغطاء، ووسط آهات اللّذة، وفورانها في العروق، ستبنون المشاريع التي تربو بها الأموال، ويتعزّز من خلالها النفوذ والوجاهة والمقام.. وأوّل مشروع أقترح أن تبدأوا به، هو شراء المخزن الكبير، وتوسيع قاعاته وطبقاته. وفيما بعد ستجدون المشاريع تقترح نفسها عليكم دون حيرة أو عناء. أنتم منذ اليوم حزبي، وسأرعاكم رعايتي لسيّدي.. والآن.. يمكنكم أن تذوقوا المتع الباكورية، ريثما أخلع عبد الرحمن الدرويش من مكانه حول طاولة الروليت.

(يخرج الخادم. تخفت الإضاءة ويتغيّر لونها. تسيل موسيقى فيها إيقاعية مثيرة. ترقص كريمة، ثم يتبعها الشيخ، ثم يتعانق الزوجان ويحتلّ كل منهما ركناً. تتلاشى الإضاءة ببطء).

مشهد ٢

(المصطبة الكائنة في دار الزرقاء. فاطمة الموعي والزرقاء وبسّام الراضي يجلسون على الحصيرة المفروشة. وهم يتناولون الشاي بصمت وشرود. تعوم في الجو موسيقى أغانٍ شعبية موزّعة توزيعاً جديداً يفسد صفاء إيقاعاتها، وجملها الموسيقية المألوفة).

بسّام : زرت كل الناس الذين أعتقد أنهم يقدّرون رأيي، ورجوتهم ناصحاً ألا يرسلوا بناتهم إلى فرقة الدبكة وشبهاتها. تصوّري يا خالة.. لم يقبل نصيحتي إلا رجل أو اثنان. أما الآخرون فقد كانوا يتهرّبون من النظر في عينيّ، ثم يتمتمون.. أعطينا كلمة، والرجل عند كلمته. ماذا حدث! أيمكن أن تعمى بصائر الناس إلى هذا الحدّ!

فاطمة : جمعت الفرقة كل صبايا الضيعة. لم يقاوم الفكرة إلا أبو راغب وبيت الضرغام.

الزرقاء : **(وهي تضع ذراعها على كتف فاطمة وتشدّها إليها)** هذه الحرّة قالت لا.. ولم تبالِ بالعواقب. حياكِ الله يا ابنتي.

فاطمة : لم أفعل إلاّ ما وجدته صواباً.

بسّام : وبدلاً من أن يقدّر الناس هذا الموقف، ويقتدوا به، واجهوه بالاستخفاف، وحاولوا الحطّ من شأن فاطمة وقرارها.

فاطمة : **(ضاحكة)** نعم.. واحدة تقول إني موضة قديمة، وأخرى تقول

إني عاشقة، وأبحث عن سبب للطلاق، وثالث يسخر قائلاً: «.. الله يطعم الحلاوة لمن ليس له أضراس».. وأشياء أخرى كثيرة.

الزرقاء : هذه الصغائر لاتستحقّ إلاّ الضحك. لن يضيع موقفك الشجاع يا ابنتي، وسيأتي وقت يتذكره الناس، ولو بعد فوات الأوان.

بسّام : (غاضباً) أمّا الآن.. فعلينا أن نعترف بالعجز، وبأننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً في مواجهة هذا التدهور الذي يجرفنا.

الزرقاء : (ببطء وشرود) كان عندي ولدان، أحدهما قال: لا.. فقُتِل، والثاني قال: نعم.. فانتهى إلى السجن والضياع. إن الشيطان مقيم في هذا البلد. أكاد أراه أو أشمّ رائحته.

فاطمة : وأنا أيضاً يساورني هذا الإحساس يا خالة.

بسّام : أنعود إلى الشيطان وخرافاته؟ إني أقدّر بصيرتكِ يا خالة، وكذلك أقدّر معاناتك. لكن الشيطان لا يؤثر إلا على نفوس تهيّأت للإصغاء إليه وطاعته، أو إذا شئتِ.. نعم هناك شيطان. إنه هذا النظام التابع والخادم للسادة الأجانب، الذي امتصّ ماء الحياة من شعبه، ونهبَ خيراته، وحوّل البلاد ملهى للأجانب والأثرياء، وسوقاً للتبديد والاستهلاك.

فاطمة : يوم الافتتاح حضرت الدولة كلّها تقريباً.

الزرقاء : إن ألاعيب الشيطان معقّدة، ولا أستغرب أن تكون إحدى ألاعيبه سلسلة طويلة مترابطة الحلقات، تبدأ من مكانٍ بعيد وتنتهي بنا. ولكن إذا كانت الدولة، وهي إحدى صنائع الشيطان، هي التي تفعل بنا ذلك، فهل تستطيع أن تقاومها؟

بسّام : لاتسدّيها في وجوهنا يا خالة.. أيعقل أن يساق شعب إلى الذبح، فلا يقاوم. بل يمضي باسماً وكأنه ذاهب إلى حفلة زفاف؟ أيعقل أن نغدو سيرة هزيلة وباهتة. سيرة شعبٍ يمضي

مع كل ريح لأنه نسي الرفض، ولم يعد يعرف إلاّ الموافقة!

فاطمة : وهل يعلم يا بسّام أنه يساق إلى الذبح؟ أنت لم ترَ ما عاينته، وعجبت له أثناء وجودي في المخزن. لن أنسى ما حييت عيون الناس، وهي تجول بين المعروضات. عيون تبرق، وتتراقص، وتكاد تنطّ من محاجرها. إن الدهشة والإغراء والوعد هي القوّة التي تخدّرهم، وتسوقهم في الاتجاه الذي تريده.

الزرقاء : أينبغي أن أسرد حكايتي مرّة أخرى.. كان لي ولدان..

بسّام : (مقاطعاً) والمغزى يا خالة!

الزرقاء : اهدأ.. ولا تتهوّر. العاصفة عاتية وستأخذ حدّها.

بسّام : أنستسلم ولانفعل شيئاً؟

الزرقاء : الطريق الذي حدثتني عنه مرّة، ليس الآن وقته.. ذات يوم سيلمس الناس أنّ ما تدافعوا نحوه، لم يكن إلاّ الموت والخراب. وعندئذٍ سيحتاجون من يزوّدهم بالمعرفة، ويدلّهم على مخرج.

فاطمة : أتريد أن أصبّ لكَ شاياً؟

بسّام : (شارداً) لا أدري.. عفواً.. عفواً (يمدّ لها الكأس فارغة) إذا أمرتِ. هل أبصرتِ شيئاً جديداً يا خالة؟

الزرقاء : لا.. لم أبصر إلا ما أخبرتك عنه، وأدعو الله ألاّ أبصر شيئاً بعد.

(يدخل أديب الناطور).

أديب : (وهو يقترب منهم) أنهيتُ لكِ المعاملة يا خالة، فحضّري البشارة. أعانك الله على هذا الـ مروان. أزهق روحي قبل أن يعطيني التفويض. طلب أوّلاً أن أكتب له تعهّداً بأن حصّته من المال محفوظة، وبعد أن كتبت له التعهّد وودّعته، ناداني وطلب أن يشهد توقيعي مدير السجن ومعاونه. الخلاصة..

أتينا بهما، ووقَّعا على التعهّد كما يشتهي. المهمّ المعاملة الآن جاهزة، فإن شئت أن تقبضي الفلوس أحضرها لكِ غداً، وإن شئت أن توظّفيها لدى السيّد عبّود الغاوي، حملت لك إيصالاً، ودفعةً أولى من الأرباح.

الزرقاء : عافاك الله.. تفضّل واجلس.. صبّي له الشاي يا ابنتي.

أديب : لا تتعبي نفسك يا فاطمة. شايك مشروب يا خالة، ولكن ماذا قلتِ؟

الزرقاء : أفضّل أن تحضرَ ليَ المال.

أديب : من عينيَّ يا خالة. غداً يكون المبلغ بين يديك. أما زال الأستاذ ناقماً على التقدّم الذي تشهده البلد!

بسّام : أتسمّي ما يشهده البلد تقدّماً؟!

أديب : وماذا يكون التقدّم إذن! خلال برهة وجيزة من الزمن تغيّر البلد، وازدهر من كل النواحي.. العمرانية والمعيشية والمالية.

بسّام : أهو تقدّم وازدهار، أن نبيع أراضينا التي كانت تطعمنا، كي نشتري بثمنها طعاماً مستورداً، وأجهزة تخطف العقل والطاقة! أهو تقدّم أن يتحوّل الفلاحون إلي خدم وماسحي أحذية! أهو تقدّم أن تنهار القيم، وتتفكك الروابط بين الناس، ونغدو جميعاً سلعاً في هذه السوق المتوحشّة! أهذا هو التقدّم والازدهار يا أديب؟!

أديب : فصاحتك لاتعكس إلا عقليّة محافظة، تتوجّس من الجديد، وتخاف من المغامرة. أهناك عاقل يذرف الدموع على محصول متقلّب من الكوسا والبندورة، حين يكون البديل مشروعاً يوفر فرص العمل، وينشط دورة المال والثروة! لقد جرّبنا الانغلاق، ولم ننلنا منه إلا الفقر والحاجة، وحين قرّرت السلطة، بحكمتها وبُعد نظرها، سياسة الانفتاح، كانت تحيي البلد، وتوفّر الشروط الضروريّة لتحديث الاقتصاد، وعصرنة

المجتمع، انظر.. في برهة من الزمن، بدأت تتكوّن الثروات، وطالت النعمة من لم يكن يحلم بها.

بسّام : من يسمعك يظن أن أغلبيّة الناس غدت في الثراء واحدة. كل الذين أثروا، هم بضعة أشخاص من السماسرة والانتهازيين.

أديب : ولم لا تقول من الأذكياء والناجحين؟ إن الفرص متاحة أمام الجميع، وتلك أهمّ ميّزات هذه المرحلة. حتى أنت.. سأحمل إليك الفرصة رغم نقمتك، وتذمّرك الدائم. إني بحاجةٍ إلى رجل أمين يضبط حساباتي، وإذا قبلت سيتوفّر لك عمل إضافيّ يدرّ عليك أضعاف راتبك الهزيل.

بسّام : أتريد أن أعمل عندك؟

أديب : ولِم لا! إني أقدّم لك الفرصة، كي تتذوّق الحياة الرغيدة، التي تزدريها جهلاً وحسداً.

بسّام : هذه فرصة أم رشوة؟

أديب : ولماذا أحتاج لرشوتك؟ إنك تبالغ في تقدير أهميّتك يا بسّام. نحن نعرف كل ما تقوله، وما تفعله، وإذا كانوا يتسامحون معك حتى الآن، فلأنهم مازالوا يحترمون علمك، ويأملون أن تثوب إلى رشدك.

بسّام : ها نحن ننتقل من الترغيب إلى الترهيب.

أديب : لاتستخفّ بما أقوله يا بسّام. هذه التغيّرات التي لاتعجبك، هي خيار نهائيّ. وكبار المسؤولين يسمّون ما يحدث ملحمة التقدّم. ويُبدون تصميماً حازماً على بتر من يحاول عرقلة هذه الملحمة. وأنا لم أعرض عليك تلك الوظيفة خوفاً منك، بل لأني أريد منفعتك، وأتمنى ألاّ تهدر مواهبك في النقمة والحسد.

بسّام : أشكر غيرتك، وأعتذر عن قبول عرضك.

أديب : (وهو ينهض) ليكن.. إن رؤية الأذكياء، وهم يرفسون النعمة، تملأ الصدر أسفاً وغماً. وحولكِ يا خالة اثنان من هؤلاء الأذكياء، وإنّ واحدهما يليق بالآخر.

الزرقاء : أرجوك يا أديب.. لا أقبل أن تطيل لسانك في بيتي.

أديب : لا عليك يا خالة.. فأنا منصرف.

(يخرج أديب)

بسّام : هذا التشدّق يستفزّ الحجر. إنهم يتلاعبون بالمفاهيم على هواهم. يسمّون المصيبة نعمة، والانحطاط تقدّماً وازدهاراً.

فاطمة : وهم ينوون أن يتروا من يخالفهم.

الزرقاء : ولكن في كلام أديب فلتةَ لسان، هزّتني كأنها إلهام ربّاني مباغت. لقد ربط بينكما، وعرف أن كلاً منكما يليق بالآخر، فماذا تقولان؟

بسّام : قبل فلتة اللسان، وهذا الإلهام يتراقص في القلب أملاً وأمنية. اسأليها يا خالة.. هل تبادلني الأمل والأمنية؟

الزرقاء : هل أسألك يا فاطمة؟

فاطمة : لو لم يكن ما ترينه خيراً لنا، لما جاءك الإلهام.

الزرقاء : لا يكفي الاعتماد على رأيي وإلهامي. أتميلين إليه؟ أتبادلينه الأمنية والأمل؟

فاطمة : إني أخجل يا خالة.

الزرقاء : فهمت.. فهمت. وأدعو الله أن تكون ساعة خير. ليحافظ كلٌ منكما على نفسه وعلى الآخر. إن الزمن صعب، ولكن معاً ستكونان أقوى على اجتياز الأيام الصعبة، وتحمّل الأذى، لاتتهوّرا، ولاتستسلما، ولا تهملا حصّتكما من النشوة والسعادة. هذا مالديّ، وزواجكما لحظة فرح لم أكن أتوقعها.

بسّام : كيف أشكرك يا خالة؟

(تطوّق الزرقاء بذراعيها بساماً وفاطمةَ. تضمُّهما إلى صدرها. يغدو الجميع كتلة من الانفعالات وجيشان العاطفة، تتساقط دموع من عيني الزرقاء).

فاطمة : أتبكين يا خالة!

الزرقاء : لاتبالي.. إني أبكي من الفرح.

(تلاشى الإضاءة)

مشهد ٣

(كرم التين. ياسين يتخبط متعثراً بخطاه وهو يمشي في الكرم. وفي يده زجاجة خمر كبيرة. يتّجه نحو التينة الوارفة الغصون التي تشبه الخيمة الخضراء).

ياسين : **(يدندن)**

حكينا عَ الوفا وكنا غَنينا القلوب المخلصة زايد غَنينا

وياما يا ما غشّتنا عينينا تفرجينا بحر يطلع سراب

(يسقط تحت التينة الوارفة الغصون، ثم يحاول بإعياء الاعتدال في جلسته، اللهجة ممطوطة. وأحياناً غير مفهومة، إن السكر يعتعه).

ياسين : بعتَ اللحم والدم بالورق.. بعتَ لحمكَ ودمك.. بعتَ الرقّة والطهارة.. بعتَ أجمل وألطف ما لديكَ.. بعتَ ابنتك.. بعتَ نفسك.. بعتَ ربابتك.. أخذوا كل شيء وأعطوني رزماً من الورق.. **(يبدأ بإخراج الرزم المالية من جيوبه)** هذه رزمة لشلالات الليل على رأسها. وهذه رزمة للتقاطيع البديعة. هذه رزمة للصبا والشباب. هذه رزمة للجمال.. هذه رزمة لفورة الحياة.. هذه رزمة لـ.. خزاكَ الله يا ياسين.. **(يتصاعد غضبه، يخرج ما تبقى من الرزم، ويرميها بحركاتٍ غاضبة. يتناول جرعاتٍ كبيرة ومتلاحقة من زجاجةَ الخمر)** وما فائدة الغناء بعد أن خسرت نفسك وروحك.. لن يخرج من

حنجرتك بعد اليوم إلا النحيب والعويل.. **(يردّد دون غناء).**
أعمى وتاه بهالدني، مالو رفيق وتوّه معو قلبو(*)
فلتت عصاتو العمتدلو عَ الطريق ودّ عفر بدربو
يا ناس.. يا هو.. ياسين باع ابنته ولم ينسكب العرق من جبينه.. ضيّع أحلى ما عنده.. ولم يبقَ له إلا أن يبكي على حاله.. **(بحركات هادئة وطقسيّة يتناول جرعةً من الخمر، يتنحنح ثم يغنّي بصوتٍ محشرجٍ أو مذبوح).**
شارد بعتم الليل مكسور الجناح بيشهق من جروحو
بتلسع ضلوعو كرابيج الريح بتبكي معو روحو
تعبان، تاكي العنق، هدتو السنين وعضّت عَ إيّامو
بيّعت حلمو بسوق الدلاّلين بنته اللي من دمو
هادا المغني اللي جرّح ضلوع الغياب وهيّج ضلوعو
مرمي على الأرض.. أنا الشاعر.. **(جرعات متلاحقة وعصبيّة من الخمر)** شاعر باع الإلهام.. باع اللحم والدم.. باع لحمه ودمه.. من أجل **(ينتفض، ينهض، ويدوس بحركاتٍ غاضبة ولها إيقاعية الرقص، رزم الأوراق النقدية)** من أجل هذه.. من أجل أوراق الخيبة.. من أجل أوراق المعصية.. من أجل أوراق الوهم.. من أجل العَرَضِ الزائل والمظهر الكاذب.. من أجل ضياع النفس وغربة الروح.. من أجل السراب.. السراب.. **(يعلو الزبد فمه، يصفرّ وجهه، وتغمر جبهته حباتٌ من العرق البارد. تتلاحق أنفاسه. يتمدّد على الأرض بهدوء، يضع يده اليمنى على صدره متوجعاً، يتحوّل لهاثه إلى مايشبه الحشرجة.. وتتلاشى الإضاءة).**

(*) استعرت هذه الأبيات مع بعض التصرّف من الشاعر ميشيل طراد

مشهد ٤

(مكتب عبّود الغاوي في المجمّع. المكتب عصري جداً. ومجهّز بشاشات تلفزيونية تكشف كل ما يدور في المجمّع. نلحظ في المكتب مزهرية سوداء وفيها وردة صفراء نضرة الأوراق واللون. عبّود الغاوي والخادم).

الخادم : هل ثقبتَ اللؤلؤة؟

عبّود : لن أفعل قبل أن أبدّد نفرتها، وأهدّئ جموحها.

الخادم : لماذا لاتدعني أساعدك؟

عبّود : لا.. لا أريد أيَّ عون. أعتقد أن هذه الفتاة هي قطافي الأخير، وسأجني الثمرة بنفسي، وبما أملك من الصبر والتمهّل.

الخادم : لم يبق متّسع للتمهّل والصبر، إن الوقت يحثّنا.

عبّود : منذ أسبوع وأنت تستعجلني. قل لي.. لماذ يحثّنا الوقت؟

الخادم : لأننا أنهينا مهمّتنا، وتجدّدنا.

عبّود : تجدّدنا؟

الخادم : منذ فترة وأحوالك لاتعجبني.. أراك تشرد كثيراً، وأحياناً تنسى. ألا تذكر أنك كنت تحسّ دبيب الضعف في مفاصلك، وأنك طلبت مني، أن أجدّد حيويتك وقواك؟. ألم تلاحظ أنك استعدت بعضاً من شبابك، وأن الدم ينبض حيّاً وقوياً في عروقك! حتى أنا لم أحرم نفسي من بعض

التجمّل.

عبود : هل تتخيّل ما سيكلفه هذا التجدّد، الذي تزفُّه لي، من خرابٍ وضحايا.

الخادم : ومتى كنّا نهتم بمسح الخراب، وإحصاء الضحايا!

عبود : أما كان يمكن أن نتجدّد إلا على أنقاض هذه البلاد البائسة والتعيسة؟

الخادم : لا أعرف سبيلاً يجدّد القوّة بعد ضعف، دون أن يخلّف وراءه خراباً وضحايا. أو لكي أكون دقيقاً.. هناك سبيلٌ واحد.

عبود : (بلهفة) ما هو؟

الخادم : وزّع أموالك، واذهب للعمل في مصنع أو في حقل. إن الجهد والعرق سيقويان عضلاتك، ويعيدان إلى وجهك الصحّة والنضارة.

عبود : هل بعتك روحي وعقدت معك ميثاقاً لأعود عاملاً أو فلاحاً. لماذا لاتحاول فهمي.؟
إن الودّ الذي أبداه هؤلاء الناس لي والآمال التي علّقوها عليّ، كلّ هذا يجعلني أشعر بما يشبه الغصّة.

الخادم : ألا تذكر حين كنت تدقّ على صدرك، وتقول لي.. هنا يوجد صخر لا قلب!

عبود : (شارداً) بعض الآهات.. بعض النظرات.. تجعل حتى الصخر يلين. وفي النهاية لاتنس أنّهم أهلي وقومي.

الخادم : ما الذي جعلك تتذكّر الآن أنهم أهلك وقومك! أما حذّرتك من الانزلاق إلى التعاطف! إن مالك هو وطنك، وإن الأعمال هي أهلك. ولامجال في عالمنا الزجاجيّ لخفقان القلب، وتهدّج العواطف. اسمع.. كنت تحسُّ الضعف، وطلبت أن تتجدّد. وكان يمكن أن أكتفي بإحضار برشامة

مقويّة مما يتوفّر في صيدلية السحر والتعاويذ. ولكن التفاني دفعني إلى تلبية رغبتك الخفيّة في ابتكار علاج يضمن لك تجدّد الحيويّة والقوّة، مادام في الأجل بقيّة، هل تدرك الآن ضخامة المهمة التي ألزمت نفسي بها.. لامجال للتثاؤب والتراخي.. وحين أقول إن الوقت يحثّنا، فهذا يعني أن علينا أن نكون غداً في الطائرة التي تعبر بنا المحيطات.

عبود : غداً!

الخادم : نعم.. غداً. وكل شيء جاهز. بيعَ المجمّع للمسؤول الكبير، ووزّعت الأراضي مقاسم لبناء فيلات وشاليهات للاستجمام، وحوّلت الأموال إلى الخارج، ولم يبقَ إلا أن نودّع شركاءنا، ونصعد الطائرة.

عبود : هل فعلت هذا كلّه دون علمي؟ قل لي.. من يخدم الآخر؟ أنا أم أنت؟

الخادم : كلانا يخدم الآخر. لكن المشكلة هي أنك تتأخّر أحياناً في التقاط أفكارك الشخصية. وبالمناسبة هل تنوي أن تغيّر العادة التي درجنا عليها، وأن تصطحب الفتاة معك؟

عبود : نعم.. سأصحطبها معي. ولكن..اصغ إليّ. لا أرى أن بقاءنا هنا، ولو لفترة، يتعارض مع المهمة التي ألزمت نفسك بها. إن أرباحنا الآن ضخمة، وستزداد كثيراً مع ازدهار العمل، وليس هناك ما يضطرنا لابتلاع أموال الناس.

الخادم : ماذا دهاك يا سيّدي! هل تقلّص طموحك إلى إدارة ملهىً صغير، وفي بلد صغير؟ أنسيت من نحن! أنسيت أننا أرصدة وأسهم وودائع وحركة سوق! طبعاً.. كان نافعاً لدمك ودمي الملايين التي كسبناها في هذه الزيارة، ولكن هل جئنا إلى هنا من أجل هذا الربح العابر! طبعاً لا.. لقد جئنا كي نجد

علاجاً للتجدّد.. ونضمن تدفّق الدماء من هذه البقاع الفتيّة، إلى عروقنا التي استهلكها الإسراف والشيخوخة. طبعاً. لم نيسّر الفرصة لثراء عدد من الأعوان إلاّ لكي نزيّن صورة السوق، ونضمن نزوح الأموال والفوائد إلينا، ولم نبتلع أموال الناس لحاجة، بل لكي نروّضهم على الخضوع لجبروت السوق وتقلّباته.. أف.. من السخف والتفاهة أن أشرح هذه البداهات.. وأمامك أنت بالذات.

عبود : إنك تجعلني أشعر بالاكتئاب والقرف.

الخادم : لا أدري كيف أفسّر موقفك! أهو تلاعبٌ، أم نوبة ضعف عابرة! من أين تعتقد أني استقيت تركيب العلاج الذي حدّثتك عنه؟. لقد استقيته منك، من الأفكار التي كانت تتوالد في رأسك. لعلّي كنت أسرعَ منك في القراءة. لكنّها كانت تتوالد في رأسك كالإلهامات وأتلقاها أنا بدوري كإيحاءات باهرة.

عبود : آأنا مكشوف إلى هذا الحدّ؟

الخادم : أنت تعلم يا سيّدي أنّ أيّاً منا لايستطيع أن يخادع الآخر. وحين شكوت لي إحساسك بالضعف ورغبتك في التجدّد، كنتَ تتخيل ولو على نحوٍ غامض هذا العلاج الذي جرّبناه هنا، وكنت تصفيّ حسابات الطفولة، وتنتقم من الحجر الذي رماك به محمد القاسم. وأنت تعرف ما آل إليه. وكنت ترى عذراء بارعة الجمال، ستقول عنها ككل مرة هذا قطافي الأخير..

عبود : ملعون أنت. أحسّ أنك تتغلغل في تلافيف دماغي.

الخادم : إني أمارس مواهبي وقدراتي.

عبود : وماذا فعلت كيلا ينهار البناء بعد رحيلنا؟

الخادم : نعم.. هذه هي اللهجة التي أحبّ رنينها. لاتخف صار لنا

حزبٌ سيتفاني في الحفاظ على عملنا وضخّ الدم إلى عروقنا. وإني أتنبأ أن يسطع نجم أديب الناطور سطوعاً قد يتجاوز هذه البلاد. أما المرأتان فقد تكشّف لديهما مواهب لم تكن تخطر على بال.

عبود : إذن لن تتوقّف العجلة بعد سفرنا.

الخادم : دارت العجلة، ولن تتوقّف بعد اليوم، والآن أخبرني ما سبب كآبتك، ونوبة الضعف التي ألّمت بك؟

عبود : **(نافذ الصبر)** أوه.. لاشيء. الحنين والشفقة، ورؤية عيون الناس النديّة بالودّ واللهفة، وجمال الفتاة، وحزن الأب، و... في النهاية أنا إنسان،ولديَّ لحظات ضعف ومشاعر.

الخادم : لاتنسَ أنك تنازلت لي عن الإنسان فيك. وإني أتوجّس كثيراً من الخيانة.

عبود : لست ممّن يخونون، أو ينسون. وهذه المماحكة أرهقتني. هل رتّبت شؤون أختي وحمايتها؟

الخادم : لاأحتاج إلى توصية.

عبود : وتغطية سفرنا دون أن يعرف أحد في القرية؟

الخادم : كل شيء مرتّب، فلا تشغل بالك.

عبود : إذن إذهب وهيّئ موكب السفر.

الخادم : حاضر.. **(يشير إلى إحدى شاشات التلفزيون، وهو يخرج)** انظر إلى ابن الدرويش، لقد خسر ما فوقه وما تحته في الروليت.

عبود : وهل زوّدنا المكان بالروليت إلا من أجل هذا؟

(يخرج الخادم منشرحاً. يتابع عبود بنظرات شاردة ما تبثّه الشاشات.. ثم تتلاشى الإضاءة ببطء).

خاتمة

(في أحد دروب القرية، والليل ما يزال في أوّله. تبدو الزرقاء في حالة غريبة من الانخطاف والذهول. تسير حاسرة الرأس، متعثّرة الخطوات، ويوشّح قسمات وجهها تعبيرٌ حادّ من الخوف والتفكّك. يتبعها شخص أو شخصان، ثم يزداد العدد حتى يتحوّل إلى حشد صغير).

الزرقاء : **(وهي تجرجر ساقيها)** هذا المساء راودتني الرؤيا. وينبغي أن أخبركم ماذا أبصر. لايجوز أن أكتمه. لا.. لايحقّ لي أن أكتم عنكم ما أراه. اللهم صلّ على النبي.. أبصر عاصفة رهيبة تتقدّم. والناس طفل وحيد في العراء. ليس هناك من يحيمه وليس هناك ملاذ يلجأ إليه. والعاصفة الرهيبة تزمجر وتتقدّم.

(يتكوّن حولها حشد من الرجال، نميّز بينهم ضرغام وخَلف الدوري ويوسف العلوني وآخرون).

يوسف : ماذا تخبر الزرقاء؟

ضرغام : إنها تتوّعدنا بالأهوال.

رجل عجوز : احذروا.. ما أخبرت الزرقاء عن شيء إلاّ وقع.

الزرقاء : اللّهم صلّ على النبي.. إني أبصر، وليت النور ينطفئ في عيني، ولا أبصر ما أبصر. سافر عبّود الغاوي، ومعه قرينه الشيطانيّ، وأحلى صباياكم.

خلف : هذه شائعة مغرضة.

رجل عجوز : دعنا نعرف ماذا تبصر.

الزرقاء : **(تكرّر جملها بصوت عميق، ورتابة طقسيّة)** اللّهم صلّ على النبي.. سافر عبّود الغاوي ومعه قرينه الشيطانيّ وأحلى صباياكم. باع كل شيء من المخزن إلى المجمّع.

يوسف : **(يمسك كتفها بيد قاسية، ويهزّها)** ماذا تقولين أيتها البومة.

خلف : أتتّهمين عبّود الغاوي بالسرقة! والله لئن تماديت، لأهتكّن هذه الشيبة!

الزرقاء : **(لامبالية.. تتابع بالنبرة الطقسيّة نفسها)** اللّهم صلّ على النبي.. سافر عبّود الغاوي، ومعه قرينه الشيطانيّ، وأحلى صباياكم. باع كل شيء من المخزن إلى المجمّع، وسافر.. نهب الأراضي والأموال، وسافر.

أصوات : أتبشّريننا بخراب بيوتنا؟

- هذا اختلاق وكذب.. إنها تخرّف.

- إذا صحّ ماقالته ضعنا.

- إنها تلقي علينا فألاً سيئاً.

الزرقاء : **(بإصرار ولامبالاة)** اللهم صلّ على النبي. نهب الأراضي والأموال، وسافر. أبصر دهشة وذهولاً. أبصر ناساً يتراكضون..

أصوات : لاتتابعي.

- من طلب منك أن تتنبأي؟

- إنها ترمي علينا تعويذة الخراب.

(ترتفع حدّة الغضب. يحاصر الرجال الزرقاء. ينشب خلف يده في عنقها. يبدأ الرجال بضربها. تسقط على الأرض، فيتكوّمون فوقها).

أصوات : **(مختلطة.. غاضبة.. متقطّعة)**

- تريد خراب بيوتنا.
- الشيطان يتكلّم من فمها.
- توقفوا! والله عيب أن تمدّوا أيديكم عليها.

(يأتي بسّام وفاطمة راكضين. يبدأ بسّام فوراً بمعاركة الناس وإبعادهم عنها).

بسّام : ابتعدوا عنها.

فاطمة : ألم تبق في النفوس نخوة!

بسّام : العمى.. وحوش البرّيّة أشدّ رأفة منكم!

فاطمة : يا عيب الشوم.. تتمرجلون على عجوز!

بسّام : اذهبي يا فاطمة ونادي المختار.

خلف : ومن يبالي بالمختار؟

رجل عجوز : عيب.. والله عيب أن تُضرَب الزرقاء.

صوت : تنبأت بالخراب، ورمت علينا فألاً سيئاً.

الزرقاء : **(بصوت متحشرج)** أبصر أناساً يتراكضون وسط سحابة من الصياح والعويل.

صوت : **(يتناهى من بعيد قويّاً وفاجعاً)** يا ناس.. يا هو.. علمت أن الغاوي هرب بأرزاقنا وأموالنا..

(يتجمّد الرجال، وكأن صعقة أخذتهم. بعد فترة..)

أصوات : **(متلجلجة وخائفة)**

- أخشى أن أصدّق ماسمعت
- صَحَّ ما تنبأت به.
- لا دخان بلا نار.
- ولكن ماذا ننتظر؟ هيّا بنا.
- هيّا..

خلف : صدّقوني.. ما هي إلاّ شائعات مغرضة.

صوت : حلّ عنّا يا كلب الغاوي!

(يتخلص الرجال من جمودهم، ويتراكضون باتجاه الصوت).

خلف : أتصفني بالكلب؟ أين تمضي؟ انتظر..

(يجري وراء الرجل الذي شتمه. يتماسك معه، لكنهما لا يتوقفان. يخرج الجميع، وهم يجرّون وراءهم زوبعة من الضوضاء والصياح.

الزرقاء ممدّدة على الأرض، والدماء تنزف من أنفها وفمها. تنحني فاطمة بلهفة، ترفع جذعها، وتوسدها حضنها. تخرج منديلاً وتمسح الدم عن وجهها).

فاطمة : وحوش.. وحوش كاسرة!

الزرقاء : **(واهنة الصوت)** بل هم يائسون يا ابنتي.

بسّام : ينبغي أن ننقلها إلى البيت، وأن نحضر لها طبيباً.

الزرقاء : لا.. لم يبق متّسع من الوقت. اتركا البيت والطبيب، وأصغيا إليّ.

بسّام : لا.. لايمكن أن نتركك هنا. إنك تحتاجين إلى طبيب.

الزرقاء : لم يعد الطبيب مجدياً. لاتقاطعاني. اسمعا، وأخبرا أن الزرقاء قالت.. أبصر الناس يتذابحون، والدم يشخب، ويسيل في الطرقات. كلّهم يتلاومون ويتذابحون. لايميّزون قرابة أو جيرة، ولايعرفون كيف يحدّدون المخطئ من المصيب. والقتلى متناثرون كالحسرات في كل مكان. **(فترة)** اللهم صلّ على النبي.. أبصر عبد الرحمن الدرويش كالشبح المهزول، يطلق النار على رأسه، ويسقط على الرض جثّة. **(تأتي من بعيد ضجّة شجارات عنيفة وأصوات غاضبة. وشيئاً فشيئاً يمتدّ الشجار إلى أماكن متعدّدة من القرية. كما نسمع بين حين وآخر رشقات من الرصاص، وصرخات دامية يطلقها المصابون).**

الزرقاء : اللهم صلّ على النبي.. أبصر الحكومة توقف القتال، ولفّ

الضيعة غطاء من الرعب والخيب. قُتل من قتل. سُجن من سجن. وهاجر من هاجر. وبلاه.. سيأتي دورك يا بسّام. في الليل يداهمونك، وإلى سجن بعيد ينقلونك. **(فترة)** أبصر المجمّع يتلألأ بالأضواء. أبصر غرباء يديرونه. ومازالت الأشياء والنفايات تتساقط كالأمطار. والثعبان يصتق فئراناً تملأ الحقول المتروكة. والبيوت المهجورة. **(فترة)** أبصر نفراً من أهلنا، ترك الشيطان على وجوههم ختمه وعلامته. وهم يزدهرون ويزدهرون، ومع الغرباء يتحالفون ويعلون. وأما أهلي، والناس الآخرون في قريتي، فإنهم يشقون ويكدحون. أبصرهم يدورون مع أمانيهم. أبصرهم يجرون وراء أحلامهم.. وأبصرهم لايجدون إلاّ السراب. لاشيءَ إلا السراب. سراب برّاق وملوّن وقاتل.. آخ.. إن قبضة رهيبة تسحق صدري.

(تضع يدها على صدرها. إنها تتنفّس بصعوبة. يمرّ رجل يركض بأقصى سرعته، ثم يختفي).

الزرقاء : **(غدا صوتها محشرجاً وعجولاً)** وأخبرا أن الزرقاء قالت.. لو أنكم لم تستعجلوا موتها، لكان ممكناً أن تبصر في البعيد شمساً تشرق بعد انقشاع هذا الليل الطويل.. الطويل.. أخيرا..

(تغمض الزرقاء عينيها، وبعد شهقة قصيرة تنقطع أنفاسها. ينحني بسّام وفاطمة فوقها).

بسّام وفاطمة : **(معاً)** خالتي.. خالتي..

(يتبادلان النظرات، وينخرطان في البكاء).

فاطمة : رحلت الزرقاء.

بسّام : قتلوها، كما كانت الأقوام المتوحّشة تقتل أنبياءها.

فاطمة : نعم.. قتلوها.

(يتعانق بسّام وفاطمة عند رأس الزرقاء، وهما يجهشان بالبكاء.
من طرف الدرب يظهر رجلان، أحدهما يشهر سكيناً، والآخر يرفع دبوساً. صاحب السكين يتراجع بخطى حذرة، وصاحب الدّبوس يتقدّم نحوه باحتراس. يشتبكان لحظة، ويفلح كل منهما بتوجيه ضربة لآخر ثم يخرجان، والمطاردة مستمرّة بينهما).

بسّام : يبدو أن أمامنا ليلاً طويلاً يا فاطمة.

فاطمة : نعم إنه ليل طويل.

(مايزالان يتعانقان، وعلى نشيجهما يختفي المنظر ببطء شديد).

ستار.

١٩٩٥

سعد الله ونوس

ولد عام 1941 في قرية (حصين البحر) محافظة طرطوس، سوريا درس حتى الثانوية في قريته كان أول كتاب أقتناه هو "دمعة وابتسامة" لجبران وكان عمره 12 سنة، ثم نمت مجموعة كتبه وتنوعت : طه حسين ، العقاد، ميخائيل نعيمة، نجيب محفوظ، يوسف السباعي، إحسان عبد القدوس ... الخ

1959حصل على الثانوية العامة، وسافر إلى القاهرة في منحة دراسية، ليدرس الصحافة في كلية الآداب، جامعة القاهرة.

1961انفصال الوحدة بين سوريا ومصر (هزة شخصية كبيرة) فكتب مسرحية طويلة عنوانها "الحياة أبداً."

1962كتب مقالاًفي مجلة (الآداب) حول الوحدة والانفصال، ومقالات في جريدة (النصر) الدمشقية.

1963الحصول على الليسانس، دراسة نقدية طويلة عن رواية (السأم).

ألقى في المعهد العالي للفنون المسرحية بدمشق سلسلة محاضرات تحت عنوان (في البحث عن مسرح عربي).

بدأ الكتابة في مجلة الآداب التي نشر فيها مقالا عن الانفصال ودراسة عن رواية السأم لالبرتو مورافيا، ثم رجع إلى دمشق وعمل في وزارة الثقافة عمل محرراً للصفحات الثقافية في صحيفتي السفير اللبنانية والثورة السورية. كما عمل مديراً للهيئة العامة للمسرح والموسيقى في سوريا. في أواخر الستينات، سافر إلى باريس ليدرس فن المسرح. وبعد أن عاد تسلم تنظيم مهرجان المسرح الأول في دمشق ثم عين مديراً للمسرح التجريبي في مسرح خليل القباني مسرحياته كانت تتناول دوما نقدا سياسيا اجتماعيا للواقع العربي بعد صدمة المثقفين إثر هزيمة1967، في أواخر السبعينات، ساهم ونوس في إنشاء المعهد العالي للفنون المسرحية ب دمشق، وعمل مدرساً فيه. كما أصدر مجلة حياة المسرح، وعمل رئيساً لتحريرها.

في أعقاب الغزو الإسرائيلي للبنان وحصار بيروت عام 1982، غاب ونوس عن الواجهة، وتوقف عن الكتابة لعقد من الزمن. عاد إلى الكتابة في أوائل التسعينات. كان سعد الله ونوس أول مسرحي عربي يقوم بكتابة الرسالة الدولية في اليوم العالمي للمسرح 27 آذار 1996 تم تكريم سعد الله ونوس في أكثر من مهرجان أهمها مهرجان القاهرة للمسرح التجريبي ومهرجان قرطاج وتسلم جائزة سلطان العويس الثقافية عن المسرح في الدورة الأولى للجائزة في 15 أيار (مايو) 1997، توفي ونوس بعد صراع طويل استمر خمس سنوات مع مرض السرطان.

وهكذا كان سعد الله ونوس مقاتلاً بالكلمة وحالماً بالحرية حتى آخر لحظة في حياته, فقد ذكرت زوجته فايزة شاويش انه لم يترك الكتاب والورق والاقلام حتى في ايامه الأخيرة بالمستشفى وهو

يودع دنيانا. ومن الأقوال الشـــهيرة له والتي القاها في مؤتمر المســـرح بباريس قبيل وفاته (نحن محكومون بالأمل ولا يمكن ان يكون هذا نهاية التاريخ).

منح ســـعد الله ونوس الجائزة على مجموع أعماله المســـرحية، مع التنويه بمســـرحياته الأربع التالية: حفلة ســـمر من أجل 5 حزيران، ســـهرة مع أبي خليل القباني، مغامرة رأس المملوك جابر، الملك هو الملك.

وذلك لما تحققه هذه الأعمال من تأصـيل لصـيغة مســرح عربي يفيد أولاً من تراث الأمة العربية تاريخاً، أو أسـطورة، أو حكاية، ويفيد ثانياً من التراث المسـرحي الإنسـاني، قديمه وحديثه موظفاً بشـكل خاص أســاليب المســرح الملحمي، والمســرح داخل المســرح، في قالب يتحد فيه الإيقاع الدرامي ضـــمن هدف خلق مســـرح عربي جديد. ويتعامل مع الواقع العربي برؤية واضـــحة من الناحيتين النظرية والعملية، واعية لدور المســـرح في تعميق الإحســـاس الجماعي بالمصـــير التاريخي.

كاتب مســـرحي ســـوري ولد في حصـــين البحر بمحافظة طرطوس عام 1941 ، واشـــتهر منذ الستينات كواحد من أبرز وجوه الحركة الثقافية والمسرحية في العالم العربي.

درس الصحافة في القاهرة وأنهى دراسته في عام 1963 . وفي تلك الفترة بدأ اهتمامه بالمسرح وكتب مسرحيات قصيرة صدرت عن وزارة الثقافة في سوريا عام 1965 ، في كتاب مستقل تحت عنوان " حكايا جوقة التماثيل " ثم جمعت مع غيرها في كتابين صـــدرا عن الآداب في لبنان عام 1978 . ومن أهم هذه المســـرحيات القصـــيرة " ميدوزا تحدق في الحياة " و " فصـــد الدم " (1963) ، و " جثة على الرصـيف " ومأســاة بائع الدبس الفقير " والرسـول المجهول في مأتم انتيجونا " (1964) و " الجراد.(1965) "

سافر إلى فرنسا عام 1966 وتعرف على المسرح الغربي في فترة تحولاته الأساسية ، واستطاع أن يستوعب أهم الطروحات الجديدة في تلك المرحلة وأن يطوعها في أعماله على أرضية المسرح العربي واهتماماته . فاستخدم " الهابننغ والتحريض " وأدخل تقنياتهما على موضوع الحرب في عام 1968 وذلك لكي يطرح سؤالا جوهريا حول الهزيمة مشككا بقدرة الكتابة المسرحية التقليدية على التعبير عن المستجدات والأحداث العنيفة المعاصرة كما في مسرحية " حفلة سمر من أجل 5 حزيران. "

إن استخدام تقنيات المسرح الغربي ، في تلك المرحلة ، لم يؤد عند سعد الله ونوس ، بأي حال من الأحوال إلى عملية نسخ ، وإنما كان عملية جدلية ربطت ودمجت بين أهم التطورات التي دخلت على المســـرح العالمي في الغرب ، وبين أشـــكال وتقاليد " الفرجة " في تراثنا الثقافي والشـــعبي . وهذا ما نجده في مســـرحيات مثل " الملك هو الملك " (1978) و " الفيل يا ملك الزمان " ، و " مغامرة رأس المملوك جابر " (1969) حيث يحكي حكواتي لجمهور مقهى شعبي حكاية المملوك الذي ضيع رأسه في معمعة الصراع على السلطة . في هذه المسرحيات يســتخدم ونوس تقنيات اللعبة والحكاية التي تولد حكاية أخرى (كما في حكايات ألف ليلة وليلة) ، وتقنية المســـرح داخل المســـرح بحيث تبدو الأمور وكأنه لعب ينقلب إلى جد . وقد بلور ونوس عبر هذه المسرحيات مفهوم " التسييس " وميزه عن المسرح السياسي.

وبالإضـافة إلى ذلك صـاغ ونوس أفكاره عن المسـرح والثقافة بشـكل نظري في كتابي " بيانات لمســـرح عربي جديد " و " هوامش ثقافية " . والواقع أن اهتمامات ونوس المتعددة والمتنوعة على المســـتوى الثقافي قد تبلورت في نواح عديدة منذ البداية . فقد قام بترجمة جان فيلار إلى العربية ، وكتب مسرحية عن مؤسس المسرح في سوريا وهي " سـهرة مع أبي خليل القباني " . كما سـاهم في ترسيخ أسس لمهرجان مسرحي في دمشق ، وأسس وترأس تحرير مجلة مسرحية مختصة هي (الحياة المسرحية) ، وساهم في إنشاء معهد لتدريس المسرح في سوريا.

كرم سعد الله ونوس في محافل عديدة أهمها مهرجان القاهرة للمسرح التجريبي في دورته الأولى ومهرجان قرطاج بـــ تونس عام 1989 وحصل على جائزة سلطان العويس الثقافية عن حقل المسرح في دورتها الأولى.

صـــدرت أعماله الكاملة في عام 1996 ، في ثلاثة مجلدات عن دار الأهالي بدمشـــق ، جمعت فيها كل المســـرحيات الطوية والقصـــيرة والنصـــوص النظرية من بيانات وكتابات تتعلق بالمسرح . وقد ترجمت مسرحياته إلى العديد من اللغات الأجنبية كما نشرت وتم عرضها في كثير من الدول العربية والأوربية.

رحل سعد الله ونوس في الخامسة عشر من أيار / مايو 1997 ، أثر مرض دام لسنوات لم ينقطع خلالها عن الكتابة . ومن أعماله في هذه الفترة " طقوس الإشـــارات والتحولات " و " والأيام المخمورة. "

هوامش للعرض والإخراج

أحاول في هذه المسرحية تجربة أخرى من تجارب " مسـرح التسـييس " التي بدأتها من قبل - ينبغي هنا التنبيه إلى أن هناك فارقا كبيرا بين " المسرح السياسي " و " مسرح التسييس " لا مجال الآن للبحث فيه - وأحدد بسرعة مفهوم هذا " المسرح " على أنه حوار بين مساحتين . الأولى هي العرض المســرحي الذي تقدمه جماعة تريد أن تتواصـــل مع الجمهور وتحاوره . والثانية هي جمهور الصـــالة الذي تنعكس فيه كل ظواهر الواقع ومشـــكلاته .. وحتى الآن لا يزال هذا الحوار صـــعبا . فمن جهة ، هناك التقاليد المســـرحية المبنية على إلغاء مثل هذا الحوار ، أو إقامته بصـــورة غير مباشـــرة وضـــمنية . وهناك أيضـــا - وهذا أهم - طبيعة المتفرجين أنفســـهم وموانعم الداخلية التي تحول بينهم وبين مباشـــرة الحوار والانســياق مع نوازعهم الداخلية للتعبير عن أنفسهم . لهذا فإننا نقوم بتجربة بعض الوسائل المصطنعة لتقديم مثل على إمكانية هذا الحوار كأن نضـــع في ســـياق العمل متفرجين يتحدثون لحســـابهم ، ويناقشـــون ، ويقدمون نموذجا لما يستطيعه ، المتفرج أو لما ينبغي أن يكون عليه . طبعا نحن لسـنا من السـذاجة بحيث نعتقد - كما ظن أحد الكتاب في تعليقه على " حفلة ســـمر " - أن المتفرجين الحقيقين لن يكتشـــفوا أن هؤلاء الذين يجلســـون بينهم ، ويشـــتركون في النقاش والحوار ، همم ممثلون مدربون على أدوارهم .. ولكن كما قلت سابقا : إننا نحاول ببعض الوسائل الاصطناعية كسر طوق الصمت ، وتقديم نموذج قد يؤدي تكراره إلى تحقيق غايتنا في إقامة حوار مرتجل وحار وحقيقي بين مســاحتي المســرح : العرض والمتفرج . ومن المؤكد أن هذه الوســـــائل ليســـت كافية وحدها ، وقد تتحول إلى مجرد مسألة شكلية وتقنية ، ما لم يتوفر الأمر الأهم والأسـاسـي في إثارة الحوار وتشجيعه . وأعنـي أن تتوفر في العرض المسرحي - أي في المساحة الأولى - الشروط اللازمة لإثارة الحوار .. كارتباط الموضــوع بحياة المتفرج ومشــاكله ، ونوع المعالجة ، وشــكلها .. و... على أن هذه الشــروط لا تكفي الموهبة فقط لتحقيقها ، وإنما تحتاج إلى بحث طويل في ظروف البيئة وبنيتها . وللأســـــف حتى الآن لم نشرع جديا في هذا البحث.

إني أحلم بمســرح تمتلئ فيه المســاحتان ، عرض تشــترك فيه الصــالة عبر حوار مرتجل وغني يؤدي في النهاية إلى هذا الإحساس العميق بجماعيتنا وبطبيعة قدرنا ووحدته.

هذه المسرحية ليست إلا مشروع عمل لن يتم إلا بعد أن تتوفر له مجموعة متجانسة ولها رؤيتها ، تقوم ببنـائـه وبلورة إمكانيـاتـه من خلال بحث دؤوب ، لا تتوقف حددوده عند الهواجس

الجمالية ، بل تتعداها إلى المشـكلات السـياسـية والاجتماعية للواقع . إن كل تجربة عرض لهذه المسرحية ينبغي أن تكون في الوقت نفسه تجربة بحث ظروف البيئة الراهنة ، وشروط الاتصال بالمتفرج والتفاعل معه . دون ذلك ، هذه المسرحية تفقد كل مرراتها وقيمتها أيضا.

عندما أقول إن المسـرحية ليسـت إلا مشـروعا للعمل ، فإنني أعني وجود بعض الثغرات والمسـاحات الفارغة ، التي تركت عمدا كي يملأها " العرض المسـرحي " بما يلائم الظروف والمكان . ليست لهذه المسرحية بداية دقيقة ، والسياق نفسه يمكن ألا يتخذ شكلا صارما ومعماريا . نحن في مقهى .. والمقهى ليس مكانا للحدث المسرحي ، بل هو المسرح نفسه خشبة وصالة . والجو الذي يسوده له دور صميمي في المسرحيه . فمن خلاله سنعمد إلى كسر الطوق اليابس للعرض المسرحي ، وسنتخلص من طقوس العمل الدائري التام لنبعث بعد ذلك نوعا من الألفة بين المتفرجين ، يتيح لنا تقديم صـورة عفوية تتخللها حكاية ذات مغزى . لهذا فإن البداية ليسـت مرهونة بسـاعة معينة أو بافتتاح صـارم . إننا نبدأ فقط عندما يعم إحسـاس منشـود بالألفة . وتتلاشـى الغرابة الأولى ، التي يحسـها المرء حين يجد نفسـه وسـط جماعة ، هي الأخرى بمجموعها تحس بالغرابة إزاء قصة وشخصيات ومناظر تراها لأول مرة.

باختصـار إني أقترح شكل " سـهرة المنوعات " لعرض مسـرحي . ولا شـك جو المقهى يتيح لنا فرصة ممتازة لذلك . وهذا الشكل لا يلتصق بهذه المسرحية فقط وإنما يمكن التوسع فيه ، واستنفاد إمكانياته في أعمال كثيرة لأن المهم في النهاية هو أن نتجاوز شكلا صارما لمسرح ، حتى الآن لا يزال المتفرج عندنا يجد نفسـه غريبا إزاءه . وهو يبذل مجهودا خاصـا - مجهودا ثقافيا بالطبع - كي يتلاءم مع هذا الشكل أو يألفه.

وباعتبار ما سـبق ، فإن كل أحاديث الزبائن ، وتدخلهم في مجريات الأحداث ، وتعليقاتهم ليسـت إلا اقتراحات ، أو ما سـميته وسـيلة اصـطناعية لتشـجيع المتفرج على الكلام والارتجال والحوار .. ولهذا فمن الممكن في ضـوء أي إخراج أن يعاد النظر في هذه الأحاديث ، أو أن تبدل صيغتها وتحول إلى العامية...

يمكن تقديم هذه المسـرحية في أي مكان ، وفي أي مسـاحة أنا أضـعها الآن في مقهى ، ولكن ذلك لا يمنع من تقديمها في أي مكان...

وبكلمة واحدة .. إني أبحث عن عرض حي لحكاية تهمنا جميعا . ولذا أتصور استخدام كل الوســـائل الممكنة كي نصـــل إلى هذا العرض الحي الذي أتمناه " فرجة " ممتعة ومفيدة تدفع المتفرج إلى تأمل مصيره.

في ركن ناءٍ من قرية حصــين البحر بريف طرطوس الســوري، وُلد ســعدالله ونوس عام 1941 وســط عائلة فقيرة تعاني من وطأة الحرمان. كان الطفل ضــعيفا في مادة التعبير، لكنه لم يكن يعلم أن تلك النقطة السلبية في تقريره المدرسي ستكون بوابة نحو عالم الكلمة والمسرح.

يروى أن أسـتاذه، بنظرة حانية، نصـحه بالإكثار من القراءة، وهكذا بدأت رحلته. أول كتاب اقتناه كان "دمعة وابتسـامة" لجبران خليل جبران، ثم توسـعت مكتبته تدريجيًا لتشـمل أعمال طه حسـين وميخـائيل نعيمـة ونجيب محفوظ، لتصـــبح فيما بعد ملاذًا لـه من واقعه القاســـي. هذه البدايـة المتواضـعة لم تكن مجرد لحظة عابرة في حياته، بل كانت شـرارة لإشـعال موهبة كتب لـها أن تـهزّ خشبة المسرح العربي وتترك بصمة لا تُمحى.

الرحلة نحو الكلمة

<u>تأملات نقدية في التاريخ العربي</u>

بعد حصـــولـه على الثانوية العامة عام 1959، غادر ونوس قريتـه إلى القاهرة بمنحة دراسية لدراسة الصحافة في كلية الآداب بجامعة القاهرة. في شوارع المدينة الضخمة، وجد نفسه منجذبًا إلى محاضــرات الدكتور محمد مندور، حيث اكتشــف عالم النقد الأدبي الذي فتح له أبواب المسرح.

هناك، في أروقة الجامعة، بدأ يكتب أولى محاولاته المســـرحية بعنوان "الحياة أبدا" عام 1961، رغم أنها لم تُنشـــر آنذاك. كانت تلك الخطوة الأولى في رحلة طويلة كان يجهل وجهتها، لكنها كانت مليئة بالحماس والتطلع.

عاد إلى دمشق عام 1963، حيث عُيّن مشرفًا على قسم النقد في مجلة "المعرفة" التابعة لوزارة الثقافة. في تلك الفترة بدأ يكتب مقالات نقدية ومسـرحيات قصـيرة نُشـرت في مجلات مثل "الآداب" و"الموقف العربي."

عام 1965 أصدر أولى مجموعاته المسرحية بعنوان "حكايا جوقة التماثيل"، التي ضمت ست مسرحيات، منها "لعبة الدبابيس" و"جثة على الرصيف" و"الرسول المجهول في مأتم أنتيغونا". كانت هذه الأعمال تعكس رؤيته الأولية للمسرح كأداة تعبير عن الواقع الاجتماعي، لكنها كانت مجرد مقدمة لما سيأتي لاحقًا.

ميلاد "مسرح التسييس"

عام 1966 حصل ونوس على إجازة دراسية وسافر إلى باريس لدراسة المسرح الأوروبي. في شوارع العاصمة الفرنسية كتب رسائل نقدية عن الحياة الثقافية هناك، ونشرها في مجلات عربية، لكن الحدث الأكبر كان نكسة حزيران 1967. تلك الهزيمة المؤلمة هزت وجدانه، فكتب مسرحيته الشهيرة "حفلة سمر من أجل خمسة حزيران"، التي اعتُبرت صرخة ضد الخذلان والاستسلام. هنا، تبنى ونوس مفهوم "مسرح التسييس"، وهو أسلوب يتجاوز مجرد عرض الواقع ليصبح أداة لتغييره. كان يؤمن بأن الأنظمة القمعية تستفيد من مجتمع لا يفكر سياسيًا، وأن تسييس المجتمع هو خطوة تقدمية جوهرية.

أولى محاولاته المسرحية

بمرور الوقت تحول مسرح ونوس إلى مرآة تعكس تناقضات المجتمع العربي، لكنه لم يقتصر على عكس عيوب المجتمع، بل سعى لكسر تلك الصورة وإعادة تشكيلها.

في "سهرة مع أبي الخليل القباني" (1973) استعاد دور الفن في مواجهة السلطة، بينما في "طقوس الإشارات والتحولات" (1994) غاص بعمق في قضايا الدين والجنس والسيطرة. "منمنمات تاريخية" (1994) قدمت تأملات نقدية في التاريخ العربي، و"الأيام المخمورة" (1997)، آخر أعماله، كانت وصية كتبها وهو يصارع المرض، محملة بالأمل رغم الألم.

لم يكن ونوس منخرطًا في أحزاب سياسية، لكنه كان مثقفًا ملتزمًا، يرى أن دوره يتجاوز الكتابة إلى مساءلة الواقع. قال ذات مرة "إننا محكومون بالأمل،" عبارة أصبحت شعارًا في خطابه ليوم المسرح العالمي 1996، حيث كان أول كاتب عربي يُكلف بهذا الشرف بعد توفيق الحكيم. كانت كلماته دعوة إلى استمرار النضال الفكري، حتى في أحلك الظروف.

في سنواته الأخيرة أصيب ونوس بالسرطان، لكنه رفض أن يتوقف قلمه. كتب خلال تلك الفترة أعماله الأعمق، كأنما كان يريد ترك كل ما لديه قبل الرحيل. في 15 مايو 1997، توفي

عن عمر 56 عامًا، تاركًا إرثًا مسرحيًا وفكريًا عظيمًا. لم يكن مجرد كاتب، بل كان ضميرًا ثقافيًا قاوم الطغيان بالكلمة، وجعل من الخشبة منبرًا للحرية.

رمز تحت التهديد

بعد 28 عامًا من رحيله، عاد اسم ونوس إلى الواجهة في سياق غير متوقع. في ظل حكومة انتقالية جديدة تسعى لإعادة تشكيل الهوية الثقافية السورية، تسربت وثيقة في 2025 تشير إلى اقتراح يقضي بإعادة تسمية أكثر من 60 مدرسة في دمشق، منها مدرسة تحمل اسم ونوس.

إرث سعدالله ونوس لا يقاس بعدد مسرحياته

زوجته، فايزة شاويش، عبّرت عن أسفها العميق، قائلة إن زوجها "رمز وطني لا ينتمي إلى نظام، بل يستحق التكريم." اندلعت ضجة واسعة، لم تكن مجرد رد فعل على اسم مدرسة، بل تعبيرًا عن خوف من محو الرموز الثقافية التي شكلت وجدان السوريين.

تدخل وزير الثقافة، محمد ياسين صالح، ليؤكد بقاء الاسم، لكن القرار الأولي أثار تساؤلات. لاحقًا، أُعلن تراجع السلطات عن قرار رفع الاسم بعد ردود فعل غاضبة من المثقفين. لو لم يتراجعوا، كان ذلك سيُفسر كإشارة إلى استمرار منطق الإقصاء، وكان سيضعف مصداقية النظام الجديد في ادعائه الانفتاح. التراجع، رغم تأخره، أعطى فرصة لإعادة الاعتبار لرمزية ونوس، لكنه أيضًا أبرز حساسية المجتمع تجاه محاولات التلاعب بالذاكرة الثقافية.

إرث لا يُمحى

إرث سعدالله ونوس لا يقاس بعدد مسرحياته، بل بقدرته على إلهام أجيال. كان يرى المسرح فضاء لتحرير الإنسان من الخوف والتبعية، وسلاحًا ضد الصمت. أعماله، من "حفلة سمر" إلى "الأيام المخمورة"، لم تكن مجرد نصوص، بل دعوات للتفكير والتغيير. في زمن الانكسارات كتب ليقاوم، وترك أملًا يستمر في التوهج.

اليوم، ونوس يبقى رمزًا للمثقف المقاوم، والمسرح منبرًا للحرية. اسمه على مدرسة ليس مجرد تكريم، بل تذكير بأن الكلمة يمكن أن تكون مقاومة، وأن الثقافة هي الوطن الحقيقي الذي لا يمكن أن يُغلق. في عالم يتغير باستمرار، يبقى صوته نقيًا، يدعو إلى الأمل، ويحث على

التسـاؤل: هل يمكن للفن أن يغير الواقع؟ سـعدالله ونوس أجاب: نعم، وأثبت ذلك بكل خطوة خطاها على خشبة المسرح.

أهم المؤلفـــات :

- فصد الدم 1964.
- صـدور أول مجموعة له من المسـرحيات القصـيرة عن وزارة الثقافة تحت عنوان (حكايا جوقة التماثيل) 1965.
- عندما يلعب الرجال 1968.
- حفلة سمر من أجل خمسة حزيران 1968
- الفيل يا ملك الزمان1969.
- مغامرة رأس المملوك جابر 1971
- ترجمة كتاب (حول التقاليد المسرحية) 1976.
- الملك هو الملك 1977
- رحلة حنظلة 1978
- الاغتصاب 1990
- منمنمات تاريخية 1994
- طقوس الإشارات والتحولات 1994
- أحلام شقية 1995
- يوم من زماننا 1995
- ملحمة السراب 1996
- بلاد أضيق من الحب 1996
- رحلة في مجاهل موت عابر 1996
- الأيام المخمورة 1997